مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن الله بعث نبيّه محمدًا ﷺ بالهدى، ودين الحق، ليظهره على الدين كله. فالهدى: هو العلم النافع. ودين الحق: هو العمل الصالح. وقد ضمّن الله ما أنزل على نبيّه من البينات، هذين الأمرين، فاحتوى كتاب الله ﷻ على كل ما يحتاجه الناس في أمر معاشهم، ومعادهم؛ من العقائد، والشرائع، والأخلاق، والآداب، فكان فيه غنية وكفاية.

وقد جعل الله كتابه آية خالدة، ومعجزة باهرة إلى يوم القيامة. وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)متفق عليه[1]، فهذا القرآن العظيم فيه الخير، والبركة، والصلاح، والفلاح، والنجاح، لهذه الأمة، ولجميع العالمين، إلى يوم القيامة.

وقد امتن الله على عباده المؤمنين بإنزال هذا الكتاب، وامتن على نبيّه بذلك وشرفه به فقال تعالى: [تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١] [الفرقان: ١] ، وقال تعالى: [ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣] [الزمر: ٢٣]، وأقسم الله تعالى به في غير ما موضع، في كتابه؛ تعظيماً لشأنه، وتفخيماً له، ولم ينزل الله تعالى كتابه لأجل أن يُترنم بذكره، ويُتغنى به، فحسب، وإن كان هذا مراداً مقصوداً، ولكن أنزله ﷻ لما هو أعظم من ذلك؛ لتدبره وتعقله، قَالَ تَعَالَىٰ: [إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢] [يوسف: ٢]

وقَالَ سبحانه: [كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩] [ص]، وقَالَ ﷻ: [وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ] [الأنعام: ٩٢].

---

[1] صحيح البخاري (٤٩٨١)، صحيح مسلم (١٥٢).

ففي القرآن العظيم بركة في تلاوته؛ لما يحدثه في نفس تاليه من السكينة والطمأنينة؛ لأنه أعظم ذكر لله، وقد قال تعالى: [ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ][الرعد: ٢٨].

وكم من إنسان قلق، متوتر، فتح دفتي المِصْحَف، ورطّب لسانه بتلاوة آي الكتاب، فانقشعت عنه سحائب الهموم، والغموم، وانجلت عن ناظريه الغشاوة، وعن أذنيه الوقْر، وعن قلبه الأكنة.

وهو مبارك أيضاً فيما تضمّنه من العلوم النافعة، وأعظم ما فيه من العلوم: العلم بالله ﷻ. فلا سبيل لنا إلى العلم بالله تعالى، إلا فيما أودعه في كتابه أو نطق به نبيه ﷺ ، فقد تضمّن من أسماء الله الحسنى، وصفاته العُلى، الشيء الكثير، مما لا يخفى، فيحصل للقلب من تدبر هذه المعاني الجليلة في أسماء الله وصفاته، وأفعاله، ما يقع به تعظيم الرب وخشيته ومحبته ورجائه وسائر ما يتنعم به القلب من العبادات القلبية الباطنة.

وأودع الله تعالى فيه أيضاً من الشرائع العادلة مما يحتاجه الناس، في عباداتهم، وفي معاملاتهم، وفي معاشرتهم لأهليهم مالا يبقى معه إشكال، فلم يدع شاذَّةً ولا فاذَّةً إلا وترك لنا منها علماً.

وهو مبارك أيضاً في موعظته، فإن في القرآن موعظة لا توجد في غيره، وفيه تأثير على القلوب، لا يحصل إلا به، وربما تفنن الوعاظ والمربون بأنواع المواعظ والتأثيرات وربما كان تأثيرها كبيراً، لكنه آنِيّ، أما موعظة القرآن فإنها باقية وثابتة ومؤثرة، فأعظم ما عالج به الإنسان قلبه كتاب الله ﷻ؛ ولهذا عَتِبَ الله تعالى على المؤمنين في أول الإسلام ما أصابهم من فتور، فقال سبحانه:[۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ] [الحديد:١٦].

قال ابن مسعود: " ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين"[1].

فلابد أن يُحدث هذا القرآن خشية وخشوعاً في القلب، وكأن الله سبحانه وتعالى يحضُّهم ويُحرضهم على تحصيل هذا الأثر، ثم قال: [وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ] [الحديد:١٦]، فحذر الله تعالى من مشابهة أهل الكتاب، الذين جعلوا كتاب

[1] صحيح مسلم (٣٠٢٧).

الله وراءهم ظِهريّاً، ولم ينتفعوا به، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فكتاب الله بين ظهرانيهم، لكنهم لا يرفعون به رأساً.

ثم أردف الله تعالى هذه الآية بقوله[ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ] [الحديد:١٧]، فلفت الأنظار إلى أن حاجة القلوب إلى موعظة القرآن، أعظم من حاجة الأرض الميتة إلى ماء السحاب، فلئن كان ماء السماء يُحيي الأرض بعد موتها، فيُنبت الزرع، ويدرُّ الضرع، فإن هذه القلوب أحوج إلى ما أنزل الله من كلامه، من الأرض الميتة إلى المطر، والقرآن العظيم مبارك في آثاره فإنه يُحدث آثاراً حميدة في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الجماعات، وعلى مستوى الأمة بعمومها.

فالمرء إن اعتصم به، والتزم بهديه أصلح الله له حاله، ورُزق الحياة الطيبة، واطمأنت نفسه، وهدأ باله، وحصّل له نعيم الدنيا المتمثل بلذة مناجاة الله تعالى.

والمجتمع إن التزم بتعاليمه، وحدوده، وُقي من الشرور، والآفات، وحُفظت الأسرة من الخلاف، والفرقة، والنزاع، ورُوعيت الحقوق، والذمم.

والأمة بمجموعها إن التزمت به حقق الله لها النصر والتمكين:

قال تعالى: [ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾][الحج: ٤١]

وقال سبحانه: [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾] [النور: ٥٥].

فالقرآن العظيم هو عهد ما بيننا وبين الله ﷻ إن نحن التزمنا به، وعظّمناه، وقدّمناه، وجعلناه إماماً لنا، هدانا لأرشد أمرنا، وإن كانت الأخرى، فليس وراء ذلك إلا الضلال، والخسار، في الدنيا والآخرة.

ولا شك أن تلاوة كتاب الله، فهماً، وتدبراً، من أولى ما يكون، فإنه لا يخفى أن العلم الذي كان بين أيدي الصحابة ﷺ هو هذا العلم المنزل من السماء؛ (القرآن العظيم)، ولم يكن بين أيديهم شيءٌ من هذه الكتب المطولات، ولا الشروحات، ولا ما تمتلئ به رفوف المكتبات، وإنما كان أحدهم يُقبل على هذا الدين بكُليته، فيقرع سمعه القرآن، فيستحيل خلقاً جديداً، فيستيقظ من غفلته، ويصحو من غفوته، ويعلم سر خلقه، وكينونته، فيعود خلقاً جديداً، يُنشئه الله نشأة أخرى. وقد صنع الله بأصحاب نبيه ﷺ من الكرامة والخير والتمكين مالا يخفى، قَالَ تَعَالَىٰ:[لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾] [آل عمران: ١٦٤]. فكانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فبعث الله نبيه ﷺ في هذه الأمة العربية، التي كان بعضها يأكل بعضاً، وينزو بعضها على بعض، ويقتتلون السنين الطوال، من أجل بيت شِعْر، أو شطره، أو لأجل بعير، ، أو ماء، أو مرعى ، أو نحو ذلك، فجعل الله تعالى منهم أمة قوية متحابة، وفتح بهم القلوب، قبل أن يفتح بهم الحُصون. وفي سُنيات معدودة طبّق دين الله تعالى الأرض المعمورة، وكل هذا ببركة القرآن، تمثّلوه فرفعهم الله تعالى به، ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أوّلها. ولذلك كان ينبغي لكل عاقل، لبيب، حازم، أريب، أن يتوجه إلى النبع الأول؛ النبع الصافي، ويدع السّواقي، يَبتدئ بما أنزل الله على نبيه من الكتاب والحكمة، فيَعمد إلى الكتاب والسنة، يستقي منهما. فمن وجد ماء جارياً وله فروع، فالكسول يذهب إلى أحد هذه الفروع الضحلة، فيملأ منها إناءه، ولكن صاحب الهمة يقول: مالي آخذ من هذه السواقي التي فيها شوب، وكدر، وطين،! بل أذهب إلى هذه العين المتفجرة، المتدفقة، الصافية، فأستقي منها.

فلأجل هذا، رأيت عقد دروس في تفسير القرآن العظيم، حتى نعيش في روضات أنيقات، من كلام الله ﷻ، الذي به صلاح القلوب، وصلاح الحياة كلها، ورأيت التركيز على التفسير العقدي، فإنه أساس بناء هذه الأمة، وسبب صلاح القلب، واخترت لهذا (جزء عم) ، آخر أجزاء القرآن العظيم. لما تضمنه من تقرير الاعتقاد في العهد المكي. فكل سور هذا الجزء نزل بمكة باستثناء

سورتين، هما سورة البيّنة، وسورة النصر. وما سواهما، فكله مكي. ويظهر فيه ملامح، وخصائص السور المكية من التركيز على مسائل الاعتقاد، والتوحيد، والمعاد، وأصول الإيمان، وما أحوجنا في هذا الزمان وفي كل زمان إلى استحياء هذه المعاني وتقويتها في القلوب والنفوس.

وكان من توفيق الله لي أن اشتغلت بتفسير هذا الجزء المبارك في دروس متتابعة في جامع أبي موسى الأشعري بمحافظة عنيزة سنة ١٤ هـ ثم قام بعض الطلبة، جزاهم الله خيراً، بتفريغ هذه الدروس من محفوظاتها الصوتية والعناية بإخراجها، وتم نشرها على حلقات متتابعة في موقع العقيدة والحياة الالكتروني، ثم أعدت النظر فيها، وهذبتها، حتى استوت على هذه الصورة.

فما كان من خيرٍ وصواب فمن الله، وما كان من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان. ورحم الله عبداً أهدى إلي عيوبي ودلني على الصواب.

وقد سرت على الطريقة التالية:

أولاً: أبين مقاصد السورة، فإن الله سبحانه وتعالى ما جعلها سورة مسوّرة إلا ولها موضوع، أو موضوعات مترابطة.

ثانياً: أقوم بتجزئة هذه السورة، إن كانت طويلة، إلى أجزاء ذات رابط موضوعي، فكل طائفة من الآيات تكون متناسبة فيما بينها عند التأمل.

ثالثاً: أشرع في التفسير التحليلي لهذه المقاطع، ببيان مفرداتها وما قيل فيها، وتراكيبها وما يفتح الله تعالى من علم وفهم.

رابعاً: أقوم باستنباط الفوائد العقدية، والإيمانية، والتربوية المميزة، من هذا المقطع. وعلى هذا النهج أسير بعون الله تعالى.

والله المسؤول وحده أن يجعل عملي خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه حامداً لربه شاكراً لأنعمه مصلياً مسلماً على رسوله .

د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي.

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾]

* هذه السورة العظيمة المسماة بسورة (النبأ) وتُسمى بسورة (عَمَّ) لها مقاصد يمكن أن نلخصها في أمور ثلاثة:

الأول: تعظيم شأن القرآن.

الثاني: تقرير الإيمان باليوم الآخر.

الثالث: الدعوة إلى التفكر في آيات الله الكونية.

وقد استهل الله ﷻ هذه السورة بصيغة الاستفهام [عَمَّ] ؟ وهي اختصار لـ (عن ماذا)، ومعناها : عن أيّ شيء يتساءل المشركون. وقد وردت على صيغة الاستفهام الإنكاري، للنعيِ على فعلتهم، فكيف يسوغ أن يتساءلوا، وأن يختلفوا في أمر كهذا!

و[النَّبَإِ] المقصود به: الخبر. وليس أيَّ خبر، بل الخبر الذي استطار واشتهر؛ وهو مأخوذ من النَّبْوة، وهي ما علا، وارتفع من الأرض. ثم فخّم الله شأن هذا النبأ، فوصفه بأنه [الْعَظِيمِ]، والأمر كذلك.

وقد وقع الخلاف بين المفسرين؛ هل المقصود بالنبأ: القرآن، وهو قول مجاهد، أم المقصود بالنبأ: البعث بعد الموت، وهو قول قتادة. ويُعزز القول الأول، أنه وقع الاختلاف منهم في القرآن؛ فتارة يقولون: سحر. وتارة يقولون: كَهانة. وتارة يقولون: شعر. فينطبق عليهم أنهم قد اختلفوا فيه. في حين أن البعث لم يقع فيه اختلاف بينهم؛ لأنهم قد أنكروه جملة وتفصيلاً. إلا أن القول الثاني وهو أن النبأ العظيم هو البعث أليق بسياق السورة؛ فإن سياق السورة كما تقدم، يتعلق بأحوال الآخرة، والجنة، والنار، والفَصْل، والحساب.

ولو ذهبنا نُرجح بين القولين، لكان القول الأول أرجح؛ لأنه أعم، فإن القرآن يدخل فيه أمر البعث، فيكون متضمناً له. ويكون اختلافهم في الواقع، في مفردات هذا الأمر، فهذا أولى بالاختيار. وقد اقتبس الشيخ محمد عبد الله دراز –رحمه الله–كتابه (النبأ العظيم) من هذه السُّورة.

ثم إن الله ﷻ لمّا ذكر تساؤل المشركين، أجاب عنه إجابةً مجملةً لا تفصيل فيها، فقال: [عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣] ، ولم يذكر تفاصيل اختلافهم، والجواب عنهم، بل أعرض عن ذلك. وكأن الأمر من البيان، والوضوح، بمكان لا يستحق أن يُتنازل مع المخالف، ولا يُتحدث معه فيه. ففي هذا الإعراض تفخيم لهذا النبأ العظيم، وترذيل لهؤلاء المنكرين له.

ثم تأتي آيتان فيهما زجرٌ، وقرعٌ لهم [كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥] . ما أشدَّ وقع هذه الجُمل على القلوب!

* وكلمة [كَلَّا]أحسن ما يُقال في معناها هنا أي: ليس الأمر كما يزعمون، وما يَدّعون من إنكار البعث، أو الطعن في القرآن.

وأتى بالتكرار في قوله: [ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥]، للتأكيد. ولم يُبين الله تعالى ماذا سيعلمون، لكنه واضح من السياق، أنهم سيعلمون حقيقة هذا النبأ، وتحققه في الواقع، وذلك حينما يُعاينونه ويبصرونه، يقول الله ﷻ: [وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢] [يس:٥١ – ٥٢] ، فهم سيعلمونه حينما يرونه عِياناً بأبصارهم، ويعلمون أن وعد الله حق.

*** الفوائد المستنبطة:**

الفائدة الأولى: عظم شأن القرآن، أو البعث، وأنه من أصول الإيمان.

الفائدة الثانية: سَفَه المُنكرين للأمور اليقينية .

الفائدة الثالثة: أن المُخالفين للرسل مختلِفون فيما بينهم، فليسوا على قلب رجل واحد، قال الله تعالى: [ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ]، وقال سبحانه: [ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝١٧٦] [البقرة: ١٧٦] .

فتجد كل من خالف الحق فِرقاً وشِيعاً وأحزاباً؛ لأن الحق واحد لا يتعدد، أما الباطل فشعب وظلمات، ولهذا تجد أن الله ﷻ دوماً يُوحد الحق ويعدد الباطل قال تعالى: [وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا

فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ] {الأنعام:١٥٣} فالحق واحد، والسبيل واحدة، والباطل أشلاء.

الفائدة الرابعة: استعمال أسلوب التهديد في الموعظة الإيمانية، [كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥]، فلا بأس للداعية في بعض المواقف أن يُهدد المدعو بعقاب الله، وبشؤم صنيعه، وأن يُخوفه باليوم الآخر، ويقول له: ويلك، كما قال الله ﷻ: [وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٧] [الأحقاف: ١٧].

[أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾]

هذه الآيات استعراض مدهش لعجيب صُنع الله، وبديع خلقه في الآفاق، مما تخضع له الرقاب، وتخر له الجباه، ويملك هؤلاء المخاطبون إنكاره.

* فالاستفهام في قول الله تعالى: [أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا]، استفهام تقريري؛ لأنهم مُقرون بما فيه.

فابتدأ الله ﷻ بالآيات الأرضية، ثم ثنّى بالسماوية، فقال أولاً: [أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا]، فهذه الأرض التي تدبّون عليها، وتمشون في أكنافها، وتسيرون في مناكبها، وتحرثونها وتزرعونها؛ ألم نجعلها لكم مهاداً ؟.

ومعنى [مِهَٰدًا] أي: ممهدة مفروشة. فهم يمتهدونها، ويفترشونها، كما قال ﷻ في الآية الأخرى: [أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾] [النمل: ٦١].

فالله ﷻ بسط لنا هذه البسيطة، بحيث نطمئنُّ في السير عليها، وفي السُّكنى فوقها، وفي الحرث، والزرع فيها؛ فهي آية قريبة جداً، نلامسها كل حين. وجواب هذا الاستفهام: (بلى)؛ لأنه قد صُدِّر بالهمزة في قوله: [أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا].

* ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾

انتقل إلى مظهر آخر من مظاهر آياته الأرضية، وهى هذه الجبال الراسيات، التي جعلها الله ﷻ بمنزلة الأوتاد، كالأطناب للخيمة، فالخيمة لا تثبت، إلا إذا دُقّت أوتادها في الأرض، فكذلك هذه الأرض، لا تستقرُّ إلا بهذه الجبال قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣١].

والجبل على هيئة الوتد؛ جزء منه بارزٌ على وجه الأرض، وجزء غائر فيها. فدل ذلك على أن هذه الجبال المنظورة، لها في جوف الأرض عُمْق وامتداد. وسبب تسميتها أوتاداً؛ لأنها تمنع الأرض

من الحركة، والاضطراب، والتزلزل، إلا ما شاء الله. فالله ﷻ بحكمته البالغة، قد وزّع الأثقال في الأرض، بحيث تمنعها من أن تميد وتضطرب.

كما أن هذه الأوتاد، والكتل الضخمة من الجبال التي إذا رأى الإنسان بعضها، يندهش من هولها، وعظمتها، لها ما يقابلها في أغوار البحار. بمعنى أن الله ﷻ كما جعل هذه المرتفعات الشاهقة فوق الأرض، قابل ذلك بخلق البحار والأودية، والأغوار.

والله ﷻ يذكر الأرض، والسماء، والجبال، مقترنةً، في غير ما موضع في كتابه؛ منها قوله ﷻ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وسيأتي إن شاء الله في سورة (سبح)، ذكر هذا الاقتران.

* ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾

وهذه نقلة من الآفاق إلى الأنفس. وكلها آيات لله ﷻ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ المراد بالزوجية: الذكورة، والأنوثة. فإن الله ﷻ قد ركّب نظام الخلق، وجعل سِرَّ التكاثر، على هذه الزوجية. وهذا ليس عند بني الإنسان فقط، بل حتى عند الحيوانات، والحشرات، والنباتات، وغيرها من المخلوقات. فالتزاوج يحصل به التناسل، والتكاثر، وحفظ النوع. وهو آية عظيمة، فالله ﷻ خلقنا من نفس واحدة؛ وهو آدم .

ثم إن الله خلق من ضِلعِه الأيسر أُمّنا "حواء"، فنام آدم نومة في الجنة، فاستيقظ فإذا هي إلى جواره، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:١]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ" متفق عليه [1]، واليوم

[1] صحيح البخاري (٣٣٣١)، وصحيح مسلم (١٤٨٦).

يعمر الأرض من الآدميين، ما يزيد على ستة مليارات من البشر، مُختلفو الأجناس، والأعراق، والألوان، واللغات، كلهم يرجعون إلى أب واحد، وأمٍّ واحدة. فهذه آية عظيمة! وإذا تفكر الإنسان في خلق الرجل، وخلق المرأة، وكيف جعل الله ﷻ أحدهما يُكمل الآخر رأى عجباً!؛ لما فتح الله ﷻ على الناس العلوم الحديثة والبحوث المَخْبرية ؛ زاد إيمان المؤمن ببديع صنع الله؛ فهذا التزاوج ينشأ عن التقاء حيوان منويٍّ من الذكر، وبُويضة من الأنثى. وهاتان الخليّتان تختلفان عن سائر الخلايا، فكل خليّة من خلايا البدن، كما يقول المتخصصون في علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجي)، تحمل ستة وأربعين مُورِّثاً، أو (جيناً)، المُسمى عندهم بـ (الكروموسومات)، إلا الخليّة التناسلية، فإن في الحيوان المنوي ثلاثة وعشرين، وفي البويضة ثلاثة وعشرين. فإذا حصل التلقيح، والإخصاب، بإذن الله، انضم هذا من الرجل، وهذا من الأنثى، فحصل التلقيح. كما أن هذا التزاوج، ليس تزاوجاً حسياً فقط، بل تزاوج نفسي أيضاً؛ فإن الذكر يأنس بالأنثى، والأنثى تأنس بالذكر. ولهذا امتن الله ﷻ على عباده بذلك، وجعل ذلك من آياته، فقال في الآية الأخرى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، فهذا جانب روحي، وليس جانباً مادياً، ولا يستغني عنه الإنسان.

* ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ ﴾

هذا مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، والآيات العظيمة في النفس، وهو هذا النوم الذي يُلقيه الله ﷻ على أحدنا، فيدخل في حالة ليست كحالة اليقظة، وليست أيضاً كحالة الموت، بل هي حالة وسيطة، لاغنى للإنسان عنها. وقد وصفها الله ﷻ بأنها: سُبات.

وأحسن ما قيل في تعريف السُبات: أنه الرَّاحة، والسَكْن. وقيل غير ذلك؛ فقيل: إن معنى سُباتاً أي: موتاً. وقيل: قطْعاً للحركة.

وهذه المعاني تؤول في النهاية إلى هذه المِنّة؛ وهي أنه يحصُل بهذا النوم الراحة، والسَكْن. ولو استرسل الإنسان في اليقظة لأضرّ به ذلك في بدنه؛ فالبدن يحتاج إلى راحة، ولأضرّ به في نفسه؛ لأن

النفس تُنهك، وتُرهق، ولأضرّ به في عقله؛ فإن العقل لا يُطيق إدمان التفكير، فلذلك ألقى الله ﷻ علينا هذا النوم، وحتى لو لم نستدْعه، لاضطررنا إليه، وغلبنا.

و عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ "إِنَّ اللَّهَ ﷻ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِى رِوَايَةِ أَبِى بَكْرٍ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ"[1]. فسبحانه تعالى وبحمده، هو الحي، القيوم، الغني بنفسه. أما الآدمي، فإنه ضعيف بطبعه يحتاج إلى النوم. والنوم في حق الله نقص، يُنزه عنه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾[البقرة:٢٥٥]، لكن النوم في حق الآدمي كمال، ونفع، وحاجه وهو آية من آيات الله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾[الروم: ٢٣]

والنوم أخو الموت كما قال النبي ﷺ[2]، لكنه أخوه الأصغر؛ لأنه دون ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر: ٤٢] وأنت إذا أويت إلى فراشك تقول: (بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ) متفق عليه[3] .

إن علاقة الروح بالبدن، ليست علاقة متساوية، ولكن بين الروح والبدن أنواع خمسة من التعلقات نُدركها بالتتبع والاستقراء:

---

[1] صحيح مسلم (١٧٩).

[2] صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٨٢/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣١/٧) ، من طريق محمد بن المنكدر عن جابر ا قال: سأل رجل رسول الله أينام أهل الجنة؟ فقال: (النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح)، وقال الشيخ الألباني: (وبالجملة فالحديث صحيح من بعض طرقه عن جابر) راجع (الصحيحة) رقم (١٠٨٧).

[3] صحيح البخاري (٦٣٢٠)؛ صحيح مسلم (٢٧١٤).

النوع الأول: **علاقة الروح بالبدن في المرحلة الجنينية**: وهى علاقة ضعيفة، إلى حد أننا لا نذكر هذا التعلق، مع أننا نقطع بأن الجنين بعد أربعة أشهر تنفخ فيه الروح، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ..."متفق عليه [1]، ولكن ما منا أحد يذكر ذلك الحال؛ من وجود روحه في بدنه.

النوع الثاني: **تعلق الروح بالبدن في حال اليقظة، في الدنيا**: ولا نحتاج إلى وصفه، لأننا نعيشه.

النوع الثالث: **تعلق الروح بالبدن في حال النوم في الدنيا**: فإنها حال مستقلة، لا تُغادر الروح الجسد مغادرة تامة، بل لها فيه نوع تعلق. ولذلك نجد أن النائم أحياناً يظهر عليه التبرم، بسبب الحرّ ، أو بسبب الإزعاج، مع أنه ليس في وعيه، ويظهر عليه أثر البرد، فيقشعر بدنه، ويظهر عليه أثر الراحة والاستغراق؛ فيسترخي .

النوع الرابع: **تعلق الروح بالبدن في الحياة البرزخية**: وهذه حالة عجيبة، لا نُدركها الآن، ولكن الإيمان بالغيب يقتضي أن نؤمن بها؛ فإن روح الميت تُردُّ إلى بدنه، حين يُوضع في قبره، فيأتيه الملكان، فيسألانه الأسئلة الثلاثة المعظيمة، ثم يعقبها نعيم أو عذاب. فعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: "الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ،- قال: النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا - وَأَمَّا الْكَافِرُ ، أَوِ الْمُنَافِقُ - فَيَقُولُ لاَ أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ ، وَلاَ تَلَيْتَ ثَمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ" متفق عليه[2]، وهذه حال لا يُدركها إلا المقبور؛ فهو الذي يُحسُّ بنعيم القبر، أو عذابه.

---

[1] صحيح البخاري (٣٢٠٨)، صحيح مسلم (٢٦٤٣).

[2] صحيح البخاري (١٣٣٨)، صحيح مسلم (٢٨٧٠).

النوع الخامس: وهو أكمل أنواع التعلقات، **تعلق الروح بالبدن بعد البعث، إما في الجنة، أو في النار**: فهذا التعلق تعلق وثيق، واتصال عميق. ولهذا يجد المؤمن غاية النعيم في الجنة، ويجد الكافر غاية العذاب في النار، لشدة التصاق روحه ببدنه.

* ثم قال الله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾

لقد جعل الله ﷻ هذه الحياة تتراوح بين ليل ونهار، بين ظلمة وإسفار. وما أحسن هذا التعقيب بعد ذكر النوم، فقد ذكر الله ـ مَحلّه، وظرفه، وهو الليل. فما أن تسقط الشمس في المغيب، حتى يُقبل جيش الليل؛ يأتي هذا الجُند الظلامي، ويُغطي الأرض، ويُكنّها، ويَغشاها، كأنه لباس! أرأيت لو أخذتَ ثوباً أسود، وغشّيْتَ به إنساناً، فإنه لا يُبصر شيئاً؛ فهذا اللباس الليلي يَكسو الله به الأرض، كل يوم، ويحصل من جَرّائه هدوء، وسكينة، وآثار حميدة، قد لا نُدرك جميعها. ولهذا امتن الله على عباده فقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[القصص:٧١].

فالله ﷻ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾[الزمر:٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس:٤٠]، ولو اختل هذا الميزان، لظهر أثر ذلك على الآدميين، وآختلت مصالحهم.

حدثني بعض الناس، ممن عاش في منطقة قريبة من الدائرة القطبية في شمال إحدى الدول الاسكندنافية، قال: "عملتُ في بلد لا نرى فيه الشمس ستة أشهر، تأتي دقائق معدودة، ويرتفع قرص الشمس، ثم يسقط مباشرة، فنعيش في ظلام دامس، إلا ما يحصل بالإضاءة الكهربائية، حتى إن أحدنا يستيقظ من النوم، ويُبصر ساعته، فيجد الساعة مثلاً، السادسة ، فيسأل من حوله: الساعة السادسة، صباحاً أو مساءاً؟ لا يدري؛ لأن الزمن كله ليل! قال: إن حياة الناس في تلك البلدة، وهو ليس من أهلها، حياة كئيبة، يُحس الإنسان فيها بالانقباض، والتجهم في وجوه الناس".

إن من نعمة الله ﷻ، على هذه البلاد، التي أنزل فيها القرآن، وجعلها مهبطاً للرسالة، و منطلقاً للدعوة، أن جعلها بلاداً متوسطة، تتعاقب فيها الفصول، ويتعاقب فيها الليل والنهار، يَزيدان ويَنقصان، فهي سُرّةُ العالم، وقلب الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ ، معنى معاشاً أي: تتعيّشون فيه، وتطلبون فيه رزقكم؛ تحرثون، وتتّجرون، وتعملون، لأن هذه الإضاءة الطبيعية الواسعة تمكننا من ذلك، ولو اجتمع كل من بأقطار الأرض على أن يُضيئوا الدنيا بما عندهم من آلات، ومولدات، لم يبلغوا نزرا يسيراً من هذا الضوء الذي يجلبه الله - لنا في النهار.

وبعد ذكر هذه الأحوال البشرية الأرضية، نقلنا نقلة عُلوية

* فقال تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾

فإذا البصر يشهق إلى أعلى، ليتأمل في هذا البناء المُحكم المتين، وهو السموات. فالسماء مبنية، كما أخبر الله ﷻ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فهي سقف حقيقي، وعبّر في موضع آخر عن السموات بأنها سبع طرائق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ففوقنا سبع سموات.

ومعنى ﴿ شِدَادًا ﴾ أي: متينة، محكمة، متماسكة، كما قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[الملك: ٣]، أي: من ثُقوب، وصدوع. ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ ﴾[الملك: ٣] حاول مرة ثانية، وثالثة، ﴿ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك:٤]، حسر البصر أن يجد ثُقباً واحداً، في هذا البناء المُحكم.

وهذه السموات السبع، لا ندرك كيفيتها، هل المقصود بها ما يشير إليه علماء الفلك، أنها المجرّات، ويقولون: إن كل مجرة يتبعها قريب من مئة مليون نجم، وهذه النجوم أكبر من الشمس

بآلاف المرات، أم أنها غير ذلك؟ الله أعلم. لكننا نؤمن بوجود سبع سموات، وأن المباشر لنا منها هي السماء الدنيا.

والبناء يدل على وجود نظام يحكمها، بحيث لا يَحيد جُرم سماوي عن مجراه قِيد أَنْمُلة، هذا هو الشد والإحكام والإتقان في بنائها.

ثم لّما ذكر الله ﷻ السماء، ذكر بعض آياتها، بل ذكر أعظمها بالنسبة لما تُدركه أبصارنا، وهي: الشمس. ووصفها بهذا الوصف الجميل المُعبّر:

* ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾

فإن السراج يجمع وصفين: الإضاءة، والحرارة. فهو مَجلبة للنور ومَجلبة للدفء. وزاد ذلك بأن قال: ﴿ وَهَّاجًا ﴾ فهو يَتوهج ويتَّقِد .

شتان بين الشمس والقمر؛ فالقمر كوكب ذو جُرم بارد، كالمرآة، يعكس نور الشمس. فلذلك لا نجد من القمر دفئاً، وإن كُنّا نجدُ منه نوراً، لكنه دون إضاءة الشمس. أما الشمس فإنها تتوهج، وتبعث بالحرارة، ويترتب على ذلك، أي: الحرارة والإضاءة، أمور حيوية كثيرة جداً، تتعلق بصحة الإنسان، وبنمو النبات، وغير ذلك مما نُدركه، وما لا نُدركه. ولا ريب أن العلوم الحديثة؛ من علوم الفلك، وعلوم الأحياء، وعلوم وظائف الأعضاء، كشفت آفاقاً واسعة في هذا المقام، لكن القَدْر الذي بيّنه الله لعباده كافٍ في إقامة الحجة، فإن الناس يُدركون ذلك، وهم يَتنعمون بضوء الشمس ودفئها، وبرؤية أثرها على النبات، والحيوان.

* ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾

و﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ قيل فيها عدة أقوال: قيل إن المراد بها: السحاب. وقيل: الرياح. وقيل: السماء. وأقربها الأول.

فهذه السُّحب التي تسافر إلينا من أماكن بعيدة، نشأت عن تسليط الله لضوء الشمس، ووهجها، على المسطحات الهائلة من المحيطات، فتتبخر كميات هائلة من مياه البحار، وترقى في طبقات السماء، ثم تتكثف، وينضم بعضها إلى بعض، ثم يُرسل الله الرياح كالقاطرات تَقْطرها،

وتحملها إلى بلد ميت، إلى أرض قاحلة، كالمناطق القارّيّة، البعيدة عن مصادر المياه. يَسوقها الله ﷻ، بهذه الرياح، حتى يُوقفها على المكان الذي أراد أن تُنزل فيه حمولتها، فحينئذ تُعتصر، فتُنزل عُصارتها في هذا المكان الميت، فيُحي الله بهذا الماء أرضاً ميتة. ولو اجتمع مَنْ بأقطار الأرض، على أن ينقلوا عُشْر مِعشار هذا الماء لم يتمكنوا.

وقوله تعالى: ﴿ مَآءً ﴾ هو ماء مطلق، ماء نقي، ماء طهور.

ومعنى ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ أي: غزيراً، كثيراً. فسبحان من حمل هذه الأطنان من المياه، بين السماء والأرض، ثم صبها حيث شاء.

وعلى القول الآخر، بأن المراد بـ﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾: الرياح. نجعل ﴿ مِنَ ﴾ بمعنى (الباء)، فكأن التقدير: وأنزلنا بالرياح ماءاً ثجاجاً. لأن الرياح هي التي تسوق السحاب، لكن القول الأول أولى. وأما من فسرها بالسماء، فإشارة إلى عُلوّها، وكلُّ ما علاك فهو سماء لك.

وهذا السَّوْق لحكمة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ فتبارك الله، أرض قاحلة غبراء، لا ترى فيها أثراً لحياة، يُصب عليها ماء السماء، فإذا بها تُنبت أزاهير، وحُبوباً، وثماراً، وفواكه! فمن أودع الأرض هذه البذور وأنبتها؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

* وقوله تَعَالَىٰ: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ ﴾

الحَبُّ: اسم جنس يشمل كل ما يخطر ببالك من أنواع الحبوب؛ من بُر، وشعير، وأرز، وغير ذلك. وكذلك النبات: يشمل كل نبات مما يأكله الآدمي، وتأكله الحيوانات. وكل هذا من جَرّاء سَوْق الله لهذه المعصرات إلى هذه الأرض.

* وقوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾

الجنات هي: البساتين. وسُميت جنات؛ لأنها تُجِنُّ صاحبها، أي: تستره. ولهذا قال: ﴿ أَلْفَافًا ﴾ أي: ملتفة، والملتف فيها أغصان الأشجار، فإنها لكثرتها، التفَّ بعضها على بعض، كل ذلك من آثار ماء السماء، الذي سقى الله ـ به هذه الأرض، فإذا بها تتحول إلى حديقة غَنَّاء، تَصدح فيها الطيور، وترعى فيها السائمة، ويأكل منها الإنسان.

أرأيتَ هذه السلسلة المتلاحقة من الآيات الكونية العظيمة، كيف تُلامس شِغاف القلب؟

ثم ألا تعجب مِن أن هذه المظاهر تُقابلُنا صباح مساء، صيفاً وشتاءً، ثم لا ننتبه لهذه المعاني العظيمة التي أودعها الله ـ فيها!

ثم تأمل ثالثاً، في هؤلاء المخاطبين، من كفار قريش، الذين يُنكرون البعث، ويُنكرون القرآن، ويُنكرون الرسالة، ويُنكرون توحيد الله بالعبادة، كيف أن الله أيقظهم، ونبّههم، وحَرّك عقولهم البليدة، فهم يرون ذلك دوماً، ويعرفونه، لكنها معرفة باردة؛ لأنها مناظر مُتكررة، رتيبة، لا تُحدث في نفوسهم الأثر المطلوب، فما أشبههم بإنسان ساهٍ، غافل، أتاه مَن أتاه، فأمسكه من منكبيه، وهزّه، وقال له: انتبه، انظر، تَبصّر، تَفكّر، اعتبر، أين أنت؟ فقام مَشدوهاً لِيَنظر، لكن كما قال الله ﷻ: [قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١] {يونس: ١٠١} وقال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، فالآيات موجودة، ومبثوثة، ولكن لا ينتفع بها إلا أهل الإيمان، فلأجل ذلك ساق ـ هذه الآيات المتتابعة، لإخراج هؤلاء من غفلتهم، وسدرتهم، لِيصل بهم إلى النتيجة المنطقية؛ وهي: إذا كنتم تُقرون من أول وهلة، ومن أول سؤال: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴾ فتقولون بلى، بلى، بلى، في عشر آيات متلاحقة، بأن هو الذي صنع ذلك، فمن المستحق للعبادة إذاً؟ أهو الذي صنع ذلك أم غيره ممن لم يصنع شيئاً؟ لا شك أن المستحق للعبادة هو من صنع ذلك. ولهذا لمّا أبطل الله ﷻ اتخاذ المشركين قال آلهة، بنفي ذلك عنها فقال: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣]، فلا مُسوِّغ لعبادتهم إذا!. وقال إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٤٢]، فلا يستحق العبادة من لم يكن متصفاً بصفات الكمال.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: أن توحيد الربوبية أساس توحيد الألوهية .

الفائدة الثانية: العناية ببيان أدلة الربوبية، وشواهدها في النفس، والآفاق. وبعض الناس يَطيش عنده الميزان، فيقلل من شأن الحديث في توحيد الربوبية، وربما قال : هذا توحيد أبي جهل! لمّا رأى أن المهم هو توحيد العبادة، ظنَّ أن ذلك يقتضي الغض من توحيد الربوبية ! والحق أن توحيد الربوبية هو الأساس الذي يبنى عليه توحيد العبادة. وتأمل قول الله في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ٢١]، فطالبهم بالعبادة مُحتجاً عليهم بأنه خلقهم، والذين من قبلهم، ثم قال: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢]، فابتدأ بالأمر بالعبادة، وختم بالنهي عن الشرك، و ذكر بينهما دلائل الربوبية.

الفائدة الثالثة: إيقاظ العقول البليدة، للتفكر في المشاهد المتكررة: فكما وُوجه به المشركون، فينبغي أن نعظ أنفسنا به، وألا تتحول هذه المشاهد حولنا إلى جُثث هامدة.

الفائدة الرابعة: الاستدلال بالسهل المشاهد، قبل الصعب الخفي: فهذه الآيات المبثوثة في الكون سهلة، مشاهدة، لا نحتاج إلى محاضرات لإقامة الدليل عليها، بل يُدركها الكبير، والصغير، والعالم، والجاهل، والحضري، والبدوي، وكل أطباق الناس. فلا محوج لبناء العقيدة، على الطرق الكلامية، والأدلة الفلسفية الغامضة.

الفائدة الخامسة: استعمال أسلوب الاستفهام، والتنويع، والتكثير في الأدلة: فأسلوب الاستفهام كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴾، و أسلوب التنويع: فالله لم يقتصر على نوع واحد؛ لأن القلوب لها مفاتيح، فقد يتأثر الإنسان بمعنى من المعاني، أو مشهد من المشاهد، ويتأثر غيره بغيره، لأسباب وزّعها الله على بني آدم. وأسلوب التكثير في الأدلة؛ لأن توالي الأدلة، وكثرتها تؤثر في النفس، كتتابع الطّرْق، ومن أدمن الطّرْق أوشك أن يُفتح له. فكل هذه الأساليب التربوية، الإيمانية، ينبغي أن يستفيد منها الداعية إلى الله في إقناع غيره، وفي التأثير، والموعظة.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا القرآن العظيم، نزل قولاً ثقيلاً، محكماً، رصيناً، على قومٍ كانوا يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، على قوم لا يرون موتاً، ولا بعثاً، ولا حياة، ولا نشوراً. قوم يقول قائلهم: إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر! يأكلون، ويتمتعون كما تأكل الأنعام وتتمتع.

فلما أراد الله بهم خيراً، بعث فيهم هذا النبي العظيم، وأنزل إليه هذا القول الكريم؛ ليخرجهم من غفلتهم، وسدرتهم، فحرك أذهانهم، وهز كيانهم، وأيقظهم من غفلتهم، ورقدتهم، ولفت انتباههم إلى ما في هذا الكون من الآيات البينات، والحجج الباهرات، ليستدلوا بها على أن الله وحده، هو المستحق للعبادة، وأنه لا يمكن أن يخلق هذا الكون سدى، ولا عبثاً، بل لحكمة بالغة.

فلما قرر الله ﷻ ذلك فيما تقدم من الآيات، ختمها بآيتين، هما كالوصلة للآيات التاليات، فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾. وفي هذا ملحظ بديع! كأن الله تعالى يقول: انتبهوا! هذه الجنات الألفاف، أخرجها الله من أرض موات! فالقادر على أن يُحيي الأرض بعد موتها، قادر على أن يخرجكم من قبوركم أحياء، كما قال الله في سورة (ق)، بعد أن ذكر إنزال المطر وإنبات الجنات وحب الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد، قال بعد ذلك: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[ق: ١١]

* قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد، فهذه جملة مؤكَّدَة، جملة تامة، ذات دلالة قوية.

و﴿ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ هو: يوم القيامة. وهذا أحد أسمائه. وأسماء يوم القيامة كثيرة جداً، وقد عدَّ القرطبي: منها ثمانين اسماً، وعدَّ ابن كثير: خمسين اسماً. وهذه الأسماء بعضها مبثوث في كتاب الله، وبعضها في سنة رسول الله ﷺ، وبعضها أوصاف أطلقها بعض العلماء. فمما جاء في كتاب الله ﷻ:

(يوم الدين)، (يوم التغابن)، (الطامة)، (الصاخة)، (يوم التلاق)، (الحاقة)، (الغاشية)، (القارعة)، (يوم الحساب)، (يوم التغابن)، (يوم الحشر)، (يوم الآزفة)،و(يوم الفصل) كما هاهنا. فهي كثيرة جداً. وهذه الكثرة ليست فقط كثرة في الأسماء، بل وفي الدلالة، فإن كل اسم من هذه الأسماء يُعطي دلالة معينة:-

فـ(القارعة)؛ لأنها تقرع القلوب.

و(الصاخة)؛ لأنها تصخ الآذان.

و(الآزفة)؛ لقربها. وهكذا في كل اسم من هذه الأسماء. فهي أعلام وأوصاف، وهذه الكثرة في الأسماء، تدل على عظيم العناية بالإيمان باليوم الآخر.

فقوله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي: الفصل بين الخلائق؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، والفصل في المظالم، فينال الظالم جزاء ظلمه، ويُعوض المظلوم عن مظلمته. فالفصل يتناول كل ملتبس.

وقوله: ﴿ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ أي: أنه موعد مؤقت، قد وقته الله تعالى، وعلم زمن حصوله، ولكنه أخفاه. ولهذا اعتذر النبي ﷺ من جبريل، حين سأله عن الساعة، فقال: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ "متفق عليه[1]، فأعظم رسول بشري، وأعظم رسول ملكي، كلاهما لا يعلمان متى الساعة، كما قال الله عز وجل: [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾] [النازعات: ٤٢-٤٤]، وفي الآية الأخرى [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾] [الأعراف: ١٨٧]. ولما سأل أعرابي النبي ﷺ عن الساعة، متى الساعة؟ قال ﷺ: "وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟"متفق عليه[2]، فلم يقل في يوم كذا، وكذا. فالله تعالى قد أخفى عنا الساعة، إلا أنا نعلم أنها تأتي بغتة، وأنها مجهولة الموعد، وأنها شديدة الوقع. فالساعة يخاف منها المؤمنون، لتعظيمهم لله سبحانه وتعالى قال ﷻ: [ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾

---

[1] صحيح البخاري (٤٧٧٧)، صحيح مسلم(١٠).

[2] صحيح البخاري (٣٦٨٨)، صحيح مسلم (٢٦٣٩).

يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾][الشورى:١٧-١٨]. والساعة كما سبق، لا تأتي إلا بغتة، حتى إن النبي ﷺ قال : " وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ، فَلَا يَطْعَمُهُ . وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ، فَلَا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا"رواه البخاري[1]. فأمرها يقع فجأة، وسرعة. وقد جاء عن أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال: "مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ". قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: "ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"متفق عليه[2]. فابن آدم يتحلل، ويفنى، ويعود تراباً، ولا يبقى منه إلا عجب الذنب؛ وهو العصعص، فيحفظ الله تعالى في هذا المتبقي منه، الصفات الوراثية التي منها يركب الخلق.

وقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴾ هذا بيان وتوضيح، أي: أن يوم الفصل هو يوم ينفخ في الصور، وأتى بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، لتفخيمه وتعظيمه. و﴿ ٱلصُّورِ ﴾ هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام ، النفخة الأولى، التي يكون بها الصعق، والنفخة الثانية، التي يكون بها النشر. وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: "كَيْفَ أَنْعَمُ! وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ" رواه الترمذي[3] أي: كيف أتنعم، وأهنأ بالعيش، وصاحب القرن، إسرافيل عليه السلام، قد التقم قرنه، أي: وضعه في فيه، استعداداً للنفخ، ينتظر أن يؤمر. فالذي يذكر هذا، لا يطيب له عيش، لأنه يخشى وعيد الله ﷻ.

ففي قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴾ مشهد مهيب، رهيب، فإن البعث أمره عجيب: كل من دب على وجه الأرض، ثم مات، وتحلل فيها، يجمع الله خلقه يوم القيامة، فيُبعث

---

[1] صحيح البخاري (٦٥٠٦).

[2] صحيح البخاري(٤٨١٤)، صحيح مسلم(٢٩٥٥).

[3] سنن الترمذي (٢٤٣١) وقال هذا حديث حسن، مسند أحمد(٣٠٠٨) وصححه الألباني.

الناس حفاةً، عراةً، غرلاً، بهماً، ويقومون لرب العالمين، يساقون على هيئة أفواج؛ زمراً زمراً! وتخيل هذا الحشد العظيم؛ من لدن آدم، عليه السلام، طوله ستون ذراعاً في السماء، ثم لم يزل الخلق ينقص بعد ذلك، إلى أن آل إلى ما نحن عليه، ولا ندرى إلى ما يؤول أيضاً بعدنا، في موكبٍ واحد، على صعيد واحد، على تفاوت أحجامه، وأطواله، وألوانه مع الدواب والعشار والهوام والطير وسائر المخلوقات! وقوله تعالى: ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ أي: فوجاً إثر فوج، والفوج: هم الجماعة من الناس. وقارن بين تلك الصورة التي ذكرها سابقاً، من حال الدنيا واستقرارها، بقوله: [أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾] وهذا الانقلاب الكوني الهائل .

ثم قال تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾: فهذه السماء التي لا ترى فيها الآن ثقباً، ولا قدر جب الإبرة، كما قال تعالى: [الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾] [الملك٣، ٤] ، فإذا بهذه السماء المحكمة، المتماسكة، المبنية، تنشق يوم القيامة، وتنفتح فيها فرج، وطرائق؛ ليهبط منها الملائكة، قال تعالى: [وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾][الفرقان: ٢٥]، فتنشق كل سماء، ويهبط ملائكتها، فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم. و في قوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ ﴾ ،و﴿ يُنفَخُ ﴾، وما بعدهما،كلها بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، وذلك من باب التفخيم والتعظيم.

قال تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾، فهذه الجبال الذي قال عنها قبل بضع آيات: [وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾]، هذه الجبال الراسيات، تسيَّر بعد أن كانت تحفظ توازن الأرض، وتضبط استقرارها. والسراب إما أن يكون المراد به الهباء، أو هو تشبيه له بالماء، وليس بماء، كالذي يراه المسافر في شدة الحر، يزول أمامه يظنه ماء، يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. فهذه الجبال تتراءى لأهل الموقف على هذه الصورة؛ كالسراب. وهذا حال من أحوال الجبال يوم القيامة، ذلك أن الجبال يمر بها يوم القيامة أحوال متعددة؛ منها التسيير، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: [وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا

جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ] [النمل: ٨٨]، حال الدك، والنسف، قال تعالى: [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾] [طه: ١٠٥-١٠٧] وقال في آية أخرى: [وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾] [الواقعة: ٥]، أي: نثرت، ودكت، حتى تصبح كالرماد.

إلى أن يتحول وجه البسيطة قاعاً صفصفاً، ليس فيه معلم لأحد؛ ليس فيه مرتفع، ولا منخفض، بل تصبح الأرض كالقرصة المستوية .

ثم قال الله ﷻ: [إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا] جهنم: اسم من أسماء النار، وللنار أسماء كثيرة، وكل اسم من أسمائها يدل على وصف، وحال. ومن أشنع أسمائها [جَهَنَّمَ]، وهي من الجهومة، والسواد. ومعنى [مِرْصَادًا] أي: مكان رصد، وترقب. فهي مترصد لا يجاوزها أهلها حتى يقعوا فيها.

وذلك أن ما من أحد، إلا ويَرِدِ على النار، يقول الله ﷻ: [وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾][مريم/ ٧١] أي: إلا مار فوقها، وذلك حين يؤمر الناس بالجواز على الصراط، وهو من أصعب مواقف يوم القيامة، حتى قال ﷺ " وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ"متفق عليه[1] .

أما أهل النار، الذين هم أهلها، فقد دلت النصوص على أنهم يلقون فيها؛ تجمع أيديهم إلى أعناقهم، ثم يقذفون فيها. وإنما يمر فوق الصراط، الموحدون. فمن سبقت له من الله الحسنى، فإنه يجوزه، دون أن يصيبه شيء. فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من دون ذلك، ومنهم من تخطفه كلاليب على جنبتي الصراط، فتهوي به في النار، عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " ...يَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ ». قَالَ قُلْتُ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى أَىُّ شَىْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ قَالَ « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِى طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِىءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا - قَالَ - وَفِى حَافَتَىِ الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ

[1] صحيح البخاري (٨٠٦)، صحيح مسلم(١٨٢).

مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ "رواه مسلم[1]. فلهذا كانت [مِرْصَادًا]، فهي مرصد للطاغين الذين هم أهلها، وكذلك لمن أراد الله، ﷻ، أن يعاقبه بقدر ذنبه، من عصاة الموحدين.

وقوله تعالى: [لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا] الطغيان هو مجاوزة الحد، فإذا تجاوز العبد حده كان حقيقاً بالعذاب، إلا أن يتجاوز الله تعالى عنه. والله يمكن أن يتجاوز عن كل شيء إلا عن ذنب واحد، هو الشرك، قال تعالى: [إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾][النساء: ٤٨]. لكن لا ريب أن مرتكب الكبيرة مجازف، مخاطر. ومعنى [مَـَٔابًا] أي: مرجعاً، ومصيراً. فالأوب: بمعنى الرجوع، والمصير.

وقوله تعالى: [لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾] معنى [لَّٰبِثِينَ] أي: ماكثين، و[أَحۡقَابًا] جمع حقب. والمقصود بالأحقاب: المُدد الطويلة. وقد ورد تقديرها في أحاديث مرفوعة، وموقوفة، وآثار عن بعض التابعين؛ فمنهم من قال: الحقب: ثمانون سنة، كل سنة فيها اثنا عشر شهراً، كل شهر فيه ثلاثون يوماً، وكل يوم بألف سنة. ومنهم من قال: سبعون سنة، على التقسيم السابق. ومنهم من قال: أربعون. ومنهم من قال أكثر، ومنهم من قال أقل. وعلى أي حال، فالأحقاب تدل على مدد طويلة، لكن ها هنا إشكال! فربما قال قائل: وماذا بعد الأحقاب؟ أيخرج أهل النار، الذين هم أهلها، منها، أم لا؟ فالذين فسروا الأحقاب بالمدد الطويلة، خرجوا من هذا الإشكال، بأن قالوا: المراد بأنهم [لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا] أي: حقباً إثر حقب، بحيث لا يتناهى، فهو خلود مستمر، لا انقطاع فيه. وأما من قال: إن أهل النار، الذين هم أهلها، يخرجون منها بعد مدد طويلة، فربما استدل بهذه الآية على خروجهم[2]. لكن الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة، أن أهل النار، الذين هم أهلها، أي: الكفرة، والمشركون، لا يخرجون منها أبداً؛ لأن الله ﷻ ذكر التأبيد في خلودهم، في كتابه، في ثلاثة

---

[1] صحيح مسلم (١٩٥).

[2] انظر شرح العقيدة الطحاوية (٢/٦٥١).

مواضع قال تعالى [إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾] [النساء:١٦٨-١٦٩] وقوله تعالى [إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾] [الأحزاب: ٦٤-٦٥] وقوله [وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾] {الجن:٢٣}. وذهب ابن جرير الطبري، رحمه الله، إلى توجيه آخر، فقال: وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك: [لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا] في هذا النوع من العذاب هو أنهم [لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾]: فإذا انقضت تلك الأحقاب، صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك، كما قال جلّ ثناؤه في كتابه: [هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾] {ص:٥٥-٥٨} وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية.[1] فيكون هذا التحديد، بهذه المدة، يختص بلون، ونوع، من أنواع العذاب.

ومعنى[بَرۡدٗا]: الهواء البارد، أو الماء البارد. وقيل: إن المقصود بالبرد: النوم، فإن العرب تسمي النوم برداً. وقوله: [إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا] هذا الاستثناء استثناء منقطع، لأنك لو رفعت [إِلَّا] ووضعت بدلاً منها (بل) صح المعنى، أي: [لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾] بل يذوقون [حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا] والحميم: هو الماء المتناهي في الحرارة، شديد الغليان، حتى إن أحدهم، والعياذ بالله، إذا استسقى، أتي بالحميم ليشربه، فتسقط جلدة وجهه فيه، كما أخبر الله، ﷻ، عن ذلك في سورة الكهف، و غيرها، قال تعالى: [وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ] [الكهف: ٢٩]، وقال: [وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ] [محمد: ١٥] فهذه سقيا أهل النار، والعياذ بالله، الحميم، وبئس الشراب. وأما الغساق، فقد ورد ذكره في القرآن في غير هذا الموضع، قال تعالى: [هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾][ص:٥٧-٥٨]. فالغساق، المراد به صديد أهل النار، وما يخرج من قيحهم، وجروحهم، ودموعهم، وغير ذلك من أذاهم، الذي يساق إليهم. وقيل: إن الغساق معناه: المنتن.

---

[1] تفسير الطبري (٢٦/٢٤).

ولا تنافي بين المعنيين، فإنه يكون من صديد أهل النار، وقروحهم، وجروحهم، ويكون أيضاً متنناً. ووصف أيضاً بأنه بارد، فهو يأتيهم على هذه الصفة ويكون بارداً، متنناً، والعياذ بالله.

قال تعالى: [جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾] أي أن هذا الذي نالوه، إنما هو بسبب كفرهم بالله، ﷻ، [وِفَاقًا] على ما قدموا من سالف أعمالهم السيئة، والجزاء من جنس العمل. ثم علل الله تعالى، استحقاقهم لهذا العذاب الشنيع، فقال سبحانه: [إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾] أي: كانوا في الدنيا لا يخافون، فيرجون هنا، بمعنى يخافون. وإنما فسرت [لَا يَرْجُونَ] بمعنى يخافون، لأن الرجاء جاء هنا منفياً، فإذا جاء الرجاء منفياً، فإنه بمعنى الخوف، لأنه رجاءٌ يُخاف ألا يتم. ليس المقصود يرجون أي: يتمنون ويبغون ويطلبون، كلا، بل المقصود ضد ذلك، وهذه قاعدة مطردة في القرآن العظيم. فقوله: [إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾] أي كانوا ينكرون البعث، حتى إن أحدهم، وهو أبي ابن خلف، أتى النبي ﷺ، بعظم بالٍ، ففته أمامه وقال: يا محمد! أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد أن صار رميماً ؟ قال: نعم، يبعثك ويدخلك النار[1]. وأنزل الله في شأنه: [وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ][يس: ٧٨]

قال تعالى: [وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾] أي: إن آياتنا قد جاءتهم تلوح كالشمس؛ ظاهرةً، مبهرة، لكنهم كذبوا بها! فلا عذر لهم. وقوله: [كِذَّابًا] تأكيد، وإن كان من غير فعله، لأن (كذب) مصدره تكذيباً، لكن يصح أن يأتي المصدر من غير فعله، فقوله: [وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا] كناية عن شدة تكذيبهم. وقد كانوا كذلك؛ فإنه يأتيهم الحق البين، يسمعون القرآن ينزل على نبينا ﷺ، ويفلق لهم القمر فلقتين، ويأتيهم بالآيات الواضحات، فلا يزيدهم ذلك إلا كفراً، وتكذيباً.

قال تعالى: [وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾] فلم يخرج عنه شيء أبداً، فكل شيء أحصاه الله ﷻ، ومعنى [أَحْصَيْنَٰهُ] أي: ضبطناه، وعددناه، وحفظناه؛ لأن أحصى تأتي بمعنى العد، كقول الله ﷻ: [وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ][إبراهيم: ٣٤]، ويأتي بمعنى الضبط، كتسمية العرب للعقل

([1]) انظر تفسير الطبري (٢٠/٥٥٤).

حصاة، فهو يدل على التعقل، والحفظ، وقوله: [كِتَٰبًا] أي: مكتوباً، وهذا من تمام عدله سبحانه وتعالى. ولو شاء الله سبحانه وتعالى، لما كتب ذلك، لكن من باب إقامة العدل، وإظهار الحجة، قال تعالى: [وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾] {الكهف:٤٩} وقال: [مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾] [ق: ١٨]. فقد وكل الله تعالى بكل إنسان، ملكين، يكتبان ما يبدر منه، من قول، أو فعل، فلا يضيع شيء، قال تعالى: [وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾] [الإسراء: ١٣]. فهذه حجة بالغة، لا يثبت لأحد اعتراض عليها، حتى أن إذا الكافر، يريد أن يتشبث بأي شيء، كالغريق الذي يتشبث بالقشة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ". قَالَ قُلْنَا اللهُّ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.قَالَ "مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِى مِنَ الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى". قَالَ: "فَيَقُولُ فَإِنِّى لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِى إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّى قَالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا" قَالَ: "فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِى". قَالَ: "فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ" قَالَ: "ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ" قَالَ: "فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ" رواه مسلم[1]، قال تعالى: [ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾] {يس:٦٥}

قال تعالى: [فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾] يُقال إن هذه الآية هي أشد آية على أهل النار. فعن عبد الله بن عمرو، قال: "لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه: [فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾] قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا"[2]، ذلك أنهم يدعون الملائكة، ويقول قائلهم: [وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾] [الزخرف: ٧٧]، وتقول لهم الملائكة [قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾]

---

[1] صحيح مسلم (٧٦٢٩).

[2] تفسير الطبري (٣٦/٢٤).

[غافر:٥٠] ، ثم يأتيهم الجواب الشديد، الذي وقعه عليهم أشد من وقع العذاب الذي هم فيه: [فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾] أي: ليس هذا فقط، بل إن عذابكم سيزداد.

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: إثبات البعث، وأهوال القيامة الكبرى.

الفائدة الثانية: إثبات الحساب، والفصل في الحقوق .

الفائدة الثالثة: إثبات النار، وذكر أنواع العذاب فيها؛ من عذاب حسي وعذاب معنوي.

الفائدة الرابعة: العدل الإلهي؛ فالجزاء من جنس العمل.

[إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾]

يقول الله تعالى : [إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾]المتقون : هم الذين اتقوا الله ﷻ ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه، وهم الذين يخشون ربهم بالغيب:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

التقوى: حال يقيمها الله ﷻ في قلب العبد، فتكون واعظاً له من تلقاء نفسه؛ كلما همَّ بمعصية قال: اتق الله! خفِ الله! خفِ اليوم الآخر! فيردعه. تقول فاطمة بنت عبد الملك: "كان عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، يكون معي في الفراش فيذكر الشئ من أَمرِ الآخِرَةِ فَينتفِضُ كَمَا يَنتفِضُ العصفور في الماءِ، وَيَجلسُ يَبكي، فأَطرَحُ عَلَيهِ اللِّحَافَ رَحمَة لَهُ" [1] .

[1] البداية والنهاية (٩/٢٩٩).

إذا أراد الإنسان أن يقيس تقواه، فلينظر إلى حاله عند غيابه عن أعين الناس. لا تقس تقواك وأنت بين الناس؛ يركعون، ويسجدون، فتركع، وتسجد معهم ، وهم يذكرون، فتذكر معهم. إذا أردت أن تقيس تقواك، فانظر إلى نفسك حينما تخلو، هل يردعك واعظ الله في قلبك أم لا ؟ هاهنا التقوى .

[مَفَازًا] أي: مكان فوز، وقيل: متنزَّهًا، وقيل: [مَفَازًا]أي : الجنة، كما فسرها ما بعدها:

[حَدَآئِقَ]: جمع حديقة، وسميت بذلك، لأنها تحدق بالأشجار، والثمار، وأنواع ما يخرج من الأرض.

[وَأَعۡنَٰبٗا]: خص الأعناب بالذكر، لأنه من أكرم الثمار الذي تعرفه العرب. وهو لا شك ثمرة كريمة، وفاكهة طيبة. ولكن لا يخفى أن الأمر كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما: "ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء"[1]، الأسماء واحدة، لكن الحقائق مختلفة، فليس عنب الجنة كعنب الدنيا، اتفقت الأسماء، لكن الحقائق، والمسميات متفاوتة، حتى إن ثمار أهل الجنة التي من شكل واحد، تتفاوت طعومها، قال الله ﷻ: [كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ] [البقرة: ٢٥] يعني: تكون صورته واحدة، فيظنون أنه هو الذي طعموا من قبل، فيجدون طعمه مختلفاً؛ لسعة كرم الله، وإغداقه عليهم من النعم. وعبر بهذين الوصفين [حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا] عن لونين من ألوان النعيم الحسي في الجنة، وهما الأمكنة البهية، والثمار الشهية .

[وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣] هذا لون آخر من المتع الحسية؛ وهو الاستمتاع بالحور العين، والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي تفلك نهدها، واستدار. وهذا غاية ما يكون في الجمال، والرغبة في النساء.

[أَتۡرَابٗا ٣٣] أي : متساويات الأسنان. فهم يرزقون هؤلاء الكواعب الناعمات، الأنيقات، الجميلات، التي يرى مخ ساق إحداهن من وراء سبعين حلة، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن

[1] تفسير ابن أبي حاتم (٦٦/١) مكتبة نزار مصطفى الباز.

النبي ﷺ قال "إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ ضَوْءُ وُجُوهِهِمْ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَالزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى مِثْلِ أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَائِهَا" رواه الترمذي[1]، ولو اطلعت إحداهن على أهل الأرض لأشرق ما بين الخافقين. قال الله ﷻ: [۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ][ص: ٥٢]، فهذا لون آخر من نعيم الجنة .

[وَكَأْسًا] الكأس: المراد به كأس الخمر، لكن أي خمر؟ قال تعالى: [لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ] [الواقعة:١٩] يعني: لا تسبب لهم صداعاً وأذىً، وإنما هي خمر يلتذون بشربها ، لا تضيع عقولهم ولا تصدع رؤوسهم.

[دِهَاقًا] أي: ممتلئة، ليست قاصرة ناقصة، وقيل: متتابعة، ما يكاد يشربها حتى تمتلئ من جديد، وقيل: صافية. ولا مانع من اجتماع جميع هذه الأوصاف، فتلكم الكأس، أذاقنا الله وإياكم طعمها، ممتلئة، مترعة، متتابعة، صافية .

[لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا]أي: أنهم قد صان الله أسماعهم أن يسمعوا اللغو الذي يحصل عادة بين المخمورين؛ لأن المخمورين إذا شربوا الخمر، فاهو بالكلام السوء، واللغو، والسباب، أما أهل الجنة فإنهم لا يسمعون هذا من جراء تعاطيهم لكأس الخمر. (لغواً) اللغو: هو الكلام الفاحش البذيء، (ولا كذاباً) أي: ولا الكذب .

[جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾] يعني: أنهم يستأهلون، لكنهم إنما نالوا ذلك برحمة الله، لا بعملهم، فالله ﷻ، من كرمه، وفضله، ومنِّه، أنعم عليهم بهذه النعم العظيمة المتتابعة، التي أعمالهم لا تكافئ عشر معشارها، فقد أخبر النبي ﷺ قائلاً : " لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ. قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِّ؟ قَالَ: وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُّ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَلَكِنْ سَدِّدُوا"متفق عليه [2] فإن قلت: فما معنى قول الله ﷻ:[وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ]

---

[1] سنن الترمذي (٢٥٢٢)، وأصله في الصحيحين صحيح البخاري (٣٢٤٦)، صحيح مسلم (٢٨٣٤) من حديث أبو هريرة دون ذكر (سبعون حلة).

[2] صحيح البخاري (٦٤٦٣)، صحيح مسلم(٢٨١٦) واللفظ له.

[الزخرف:٧٢] فالجواب أن الباء في الآية للسببية ، يعني بسبب أعمالكم ، فالباء المثبتة هي باء السببية ، والباء في الحديث، هي المنفية، وهي باء المقابلة والثمنية.

وإن من معاني [حِسَابًا] ، معنى الكفاية ومنه قول العرب : " أعطاني فاحسبني " يعني : حتى قلت حسبك .

[رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ] الرب: هو الذي يربي خلقه بنعمه، هو الذي ينشأ من العدم، هو الخالق، المالك، المدبر، فهو رب كل شيء، ومليكه، وخالقه، ورازقه، ومدبر أمره، فالله تعالى رب السموات، والأجرام العلوية، ورب الأرض، والآيات السفلية، سبحانه وبحمده، لا يخرج شيءٌ عن ربوبيته.

[ٱلرَّحۡمَٰنِ ۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا] مع أن المقام مقام مهول ومخوف، إلا أنه أتى بهذا الاسم الرقيق الذي يدل على الرحمة، ففيه يتنسم المؤمن نسيم الرجاء، ولا ريب أن ذكر الأسماء الحسنى في ذيل الآيات، أو في أثناء الآيات له دلالة، ألم تروا أن الله سبحانه وتعالى قال: [وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾]،ثم قال بعدها: [فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ] فختمها بقوله:[إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ] [المائدة/ ٣٩]، فكل اسم من أسماء الله الحسنى يناسب ذكره في سياق معين.

[لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾] أي: لا يستطيع أحدٌ أن يتقدم بين يديه بقول، إلا ما أذن به .

[يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ] أي: إجلالاً لله، وتعظيماً لله، ومهابة .

[لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾]أي: لكمال إجلالهم، وتعظيمهم، وخوفهم، وخشيتهم الله عز وجل، لا ينطقون ببنت شفة، [إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا]هذا الذي يفسح له بالكلام. ويدخل في هذا الشفاعة؛ فإن الله سبحانه وتعالى، لا يأذن بالشفاعة إلا بشرطين: أذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، فقوله: [أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ] يدل على الشرط الأول، وهو أذن الله للشافع أن يشفع، وقوله: [وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾] ربما يدل على الشرط

الثاني، وهو ورضاه عن المشفوع له، وقد دل عليه قوله: [وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ] {الأنبياء:٢٨}

[ٱلرُّوحُ]: قيل فيه أقوال عدة ، قيل : إن الروح ملك عظيم، خلقه يوازي خلق جميع المخلوقات. وقيل : هو جبريل عليه السلام. وقيل : هم بنو آدم. وقيل: هي أرواح بني آدم. وقيل: هو القرآن. والأقرب، والله أعلم، أنه جبريل ؛ لأن الله تعالى قال في سورة القدر: (تنزل الملائكة والروح فيها). وإن كان قد وقع خلاف أيضاً، في تفسير الروح في سورة القدر، من أنهم طوائف من الملائكة، لكن نظراً لعظم خلق جبريل، وأنه سيد الملائكة لا عجب أن يخص بالذكر.

[ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ] أي: يوم القيامة.

[فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾] أي: مرجعاً وتوبة. فالإنسان يشاء، وله مشيئة حقيقية، خلافاً للجبرية الذين يقولون العبد مسير، مسلوب المشيئة، مجبور على فعله. والحق أن العبد له مشيئة حقيقية، ولكن هذه المشيئة داخلة تحت مشيئة الله ؛ لقوله تعالى: [لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾] [التكوير : ٢٨-٢٩].

[إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا] النذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف. وضدها البشارة: وهي الإخبار بالأمر السار. والمناسب لحال القوم النذارة؛ لأنهم منكرون، معاندون، ويوم القيامة ليس ببعيد، قال ﷺ: "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى"[1]، فأمرها قريب، [وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾] [الأحزاب/٦٣]. وهذا القرب قرب نسبي، لأنه منسوب إلى مجموع خلق العالم، فلا يقال: كيف قال النبي ﷺ ذلك، وقد مضى على مقولته أربعة عشر قرناً وزيادة؟ فالأمور لا ريب أنها نسبية.

[1] صحيح البخاري (٥٣٠١)، صحيح مسلم(٢٩٥٠).

[يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ] المرء هاهنا: هو جنس الإنسان، وذهب الحسن، رحمه الله، إلى أن المرء هاهنا هو المؤمن خاصة[1]؛ بدلالة المقابلة، فإنه قال: [وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ]، فالأول هو المؤمن، والثاني هو الكافر. فكأنه رحمه الله، جعل ذلك من باب التقسيم.

[وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾] يتمنى الكافر، والعياذ بالله، أن لو كان تراباً، أي: أن لو كان تحلل، وعاد كما كان في الحياة البرزخية. وقيل إن سبب تمنيه هذا، هو ما جاء في الآثار من أنه في يوم القيامة، يقام العدل، حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء؛ لأنها نطحتها في الدنيا، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال " لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"رواه مسلم[2] ثم بعد ذلك يقال لهذه الحيوانات: كوني تراباً! فيتمنى الكافر أن لو صار بمنزلة الحيوانات، ليكون تراباً.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الرحمة الإلهية، فالجنة عطاء وفضل [جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾].

الفائدة الثانية: إثبات الجنة ونعيمها الحسي والمعنوي جعلنا الله وإياكم من أهلها.

الفائدة الثالثة: الاستئناس باسم الرحمن في تقوية الرجاء، قال تعالى: [ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا]

الفائدة الرابعة: إثبات الملائكة، وخشيتهم لربهم.

الفائدة الخامسة: إثبات الشفاعة بشروطها: [إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾].

الفائدة السادسة: إثبات المشيئة الإنسانية، والرد على الجبرية، لقوله: [فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا].

الفائدة السابعة: قرب أمر الساعة، [إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا]، فقرب العذاب، دليل على قرب الساعة.

الفائدة الثامنة: بيان أعظم الندم، أجارنا الله وإياكم، قال تعالى: [وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا].

---

[1] تفسير الطبري (٢٤/٥٤).

[2] صحيح مسلم(٢٥٢٨)، أما قول (كوني ترابا) فأخرجها الحاكم في المستدرك (٣٢٣١) وقال صحيح على شرط مسلم وقال الذهبي: على شرط مسلم.

سورة النازعات

سميت هذه السورة الكريمة بالنازعات؛ لورود هذا اللفظ في مستهلها، ومقاصد هذه السورة قريبة من مقاصد سورة النبأ، فإن فيها ما في القرآن المكي من المقاصد العقدية:

فمن مقاصدها: إثبات البعث، وبيان أهوال يوم القيامـة.

ومن مقاصدها: بيان مصارع المكذبين بالبعث، كما في قصة فرعون.

ومن مقاصدها أيضاً: تقرير توحيد الربوبية، المقتضي لتوحيد الألوهية. كما في قوله: [ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾]، وما بعدها .

ثم أخيراً من مقاصدها: إثبات أفعال العباد، وترتب الثواب والعقاب عليها.

[وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾] .

هذه أمورٌ خمسة أقسم الله ﷻ بها، ولله ﷻ له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . قيل في هذه الخمس جميعاً أن المراد بها الملائكة، وقيل غير ذلـك .

[وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا] أي: الملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعاً شديداً، وتجذبها جذباً أليماً . فمعنى [غَرۡقٗا] أي : شديداً ، من الاستغراق بالفعل، فهو نزع شديد ، كما جاء موصوفاً في حديث البراء بن عازب ﷺ : " كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ "رواه أحمد[1] ، فإن روح الكافر عند القبض، تتفرق في أنحاء جسده، فإذا نزعتها الملائكة وقالت: [أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾] [الأنعام/ ٩٣]، تتفرق روحه في جسده، فينزعها الملك نزعاً شديداً . وهذا مروي عن جمع من الصحابة – رضوان الله عليهم –، وقيل في تفسير [وَٱلنَّٰزِعَٰتِ]: أي الموت، كما يقال نزعات الموت، أو نزع الموت، وقيل أيضاً أن المراد بالنازعات: النجوم التي تنزع من جهة إلى جهة، وتتحرك من جهة إلى أخرى، فهي تنزع من جانب من السماء إلى جانب، وتنتقل من منزل إلى منزل، وقيل المقصود بالنازعات: القسي الذي

---

[1] مسند الإمام أحمد (١٥٨٣٤) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط.

يكون فيها السهم، فكأن الله تعالى أقسم بهذه القسي حينما تنزع إلى منتهاها ، وقيل في تفسير [وَٱلنَّٰزِعَٰتِ] النفس .

هذه أقوال خمسة، وأقرب هذه الأقوال القول الأول، وهو أن المراد بالنازعات الملائكة حين تنزع أرواح الكفار من أجسادهم .

[وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾] أحسن ما قيل فيها: الملائكة حينما تسل أرواح المؤمنين سلاً رفيقاً، كما جاء موصوفاً في حديث البراء بن عازب ﷺ : " فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ "رواه أحمد[1] ، وسل القطرة من السقاء أرفق ما يكون، لا صوت، ولا ألم. فأقسم الله بالملائكة حينما تسل أرواح المؤمنين من أبدانهم. وقيل فيها أيضاً ما قيل في سابقتها؛ أن المقصود بالناشطات الموت، أو النجوم حينما تنشط من جهة إلى جهة، وقيل فيها أيضاً المقصود بالناشطات: الأوهاق، يعني الحبال التي ترمى بها الأنشوطة، فيسحب بها الصيد، والأنشوطة: حبل يكون فيه كالعقدة، يرمى على الشيء البعيد، فيجر به.

[وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾] ، الأصل في السبح العوم في الماء، وأيضاً في الهواء، فالسبح لا يكون فقط في الماء، بل يكون في الهواء أيضاً، ولهذا يوصف الجواد بأنه سابح، كما قيل:

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وأولى الأقوال، كما أسلفنا، أن المراد بها الملائكة حينما تعرج في أجواز الفضاء صعوداً، وهبوطاً، بأمر الله ﷻ، فإن الملائكة كما أخبر الله: (تعرج الملائكة والروح إليه) ، وقال : (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا)، فالملائكة تصعد وتهبط بأمر الله ﷻ، وقيل في [وَٱلسَّٰبِحَٰتِ] أيضاً ما قيل فيما قبلها؛ أن المراد بها الموت، وقيل أن المراد بها النجوم؛ لأنها تسبح في الفضاء، وقيل فيها أيضاً السفن؛ لأنها تمخر اليم فهي تسبح فيه.

[1] مسند الإمام أحمد (١٥٨٣٤) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط.

[فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾] هذه الفاء للتفريع تدلنا على أن جميع المذكورات شيء واحد، وصفات لموصوف واحد، فالمذكورات السابقة النازعات، والناشطات، والسابحات هي لموصوف واحد وهي الملائكة على القول الراجح، وأنها ليست أنواعاً يعني ليست النازعات شيء، والناشطات شيء، والسابحات شيء، بل كل هذه صفات لجنس واحد؛ لأنه أتى بعد ذلك بالفاء للتفريع على ما مضى.

[فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾] أي: الملائكة تتسابق في امتثال أمر الله، وتنفيذ ما يطلب منها من أنواع الوظائف التي أناطها الله بها. وقيل أيضاً إن المراد بالسابقات: الموت كما قيل فيما مضى، وقيل المراد بها الخيل؛ لأن السابقات مما توصف به الخيول كما قال الله تعالى: [وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾] فهن يعدون ويتسابقن، وقيل أيضاً: المراد بها النجوم؛ لتسابقها في المطالع والمغارب .

وأولى الأقوال هو القول الأول كما أسلفنا.

[فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾] أما المدبرات فإنها بإجماع المفسرين: الملائكة، فهي تدبر الأمر الذي يأمرها الله تعالى به. وهذه الجملة الأخيرة، التي هي الوصف الخامس، تؤيد أن جميع ما مضى صفات لموصوف واحد؛ لأن الله تعالى عطف المدبرات على السابقات، والسابقات جاءت مصدرة بالفاء التي تفيد التعقيب، فهذا يرجح بقوة أن النازعات، والناشطات ، والسابحات، والسابقات، والمدبرات كلها طوائف من الملائكة، أناط الله تعالى بها أعمالاً ووظائف.

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان. والملائكة عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ"خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ"رواه مسلم[1]، وسخرهم لعبادته وطاعته ، فهم يسبحون الليل والنهار لا يسئمون ، ولا يفترون ، ولا يستحسرون. وقد جعل الله تعالى طبيعتهم طبيعة تعبدية، لا ينزعون إلى الشر أبداً، على النقيض من الشياطين الذين جعل الله طبيعتهم طبيعة تمردية. وبين الطائفتين الإنسان؛ فإن الإنسان ليس كالملك لا ينزعه إلا الخير، وليس كالشيطان لا ينزعه إلا الشر، بل هو

[1] صحيح مسلم (٢٩٩٦).

كما قال الله تعالى: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾]، فالإنسان بين بين، فهو إن زكى نفسه صارت نفسه ملائكية؛ يعني طائعة لله ﷻ لا أنه يكون ملكاً، لكن تصبح نفسه نفساً مطيعة لله ﷻ منقادة كالملائكة، وإن كانت الأخرى صارت نفسه شيطانية.

هذه الآيات الخمس أقسام، بين الله تعالى المقسم به ولم يبين جواب القسم؛ والظاهر والله أعلم، أن الله تعالى أخفاه إما تعظيماً لشأنه، وإما لشهرته؛ لكونه هو الأمر الذي كان يجري الخلف فيه مع مشركي العرب، وهو البعث . فتقدير جواب القسم : لتبعثن. كأن الله تعالى يقول والنازعات، والناشطات، والسابحات، فالسابقات، فالمدبرات لتبعثن.

أقسم الله تعالى بهذه الطوائف من الملائكة على أمر عظيم جليل، عليه مدار الحياة، وإقامة الحق، وهو البعث بعد الموت، الذي كان ينكره مشركو العرب، ولا ريب أن هذه القضية قضية عظيمة ثقيلة بها مسار الحياة؛ فإن من امتلأ قلبه بالإيمان باليوم الآخر، انضبط، وصار عنده حس يقظ ، واستعداد، وشعور بالمسؤولية لما هو مقبل عليه .

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام الله تعالى بما شاء من مخلوقاته، فلله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله وحده. فمن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك، عن سعد بن عبيد أن ابن عمر سمع رجلا يقول: لا والكعبة فقال ابن عمر لا يحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول" مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ"رواه أبوداود والترمذي[1]، أما الله ﷻ فله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وآياته الكونية، والشرعية .

الفائدة الثانية: إثبات الملائكة، وأعمالهم.

الفائدة الثالثة: أن إخفاء المقسم عليه يكون للتعظيم، أو للشهرة، فالله تعالى قد أخفى المقسم عليه، وهذا يزيد الأمر جلالةً ومهابةً .

---

[1] سنن أبي داود (٣٢٥٣)، سنن الترمذي (١٥٣٥)، صححه الألباني.

[يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾] هذه تسع آيات ذات وحدة موضوعية واحدة.

[يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾] هذا الظرف متعلق بما أضمر، وتقديره: لتبعثن يوم ترجف الراجفة. والراجفة: قيل في تفسيرها: النفخة الأولى التي يحصل بها الصعق، والرادفة النفخة الثانية التي يحصل بها البعث روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]. ولا ريب في وجود نفختين، فإن الله سبحانه وتعالى قال: [وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾] [الزمر:٦٨] فالنفختان هما: نفخة الصعق، ونفخة البعث. وأضاف بعض العلماء نفخة ثالثة، سموها نفخة الفزع، واستدلوا لذلك بقوله تعالى [وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾] {النمل:٨٧} وبقول النبي ﷺ في "... ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا..." رواه مسلم[2] قال ابن كثير: "الليت: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا. فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق"[3]، وقيل: إن المراد بالراجفة هي الأرض نفسها؛ لقول الله تعالى: [يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾] [المزمل:١٤]، والرادفة: السماء؛ لكون انشقاق السماء يأتي بعد ذلك، فتكون الراجفة الأرض حين ترجف، والرادفة السماء حين تنشق إثر ذلك. ولعل ما ذهب إليه ابن عباس أقرب .

[قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾]: صور الله سبحانه وتعالى، مظاهر الفزع، والخوف، ظاهراً، وباطناً ؛ أما الباطن ففي قوله : [قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ] أي : خائفة ، والخوف

---

[1] تفسير الطبري (٢٤/٦٥).

[2] صحيح مسلم (٢٩٤٠).

[3] تفسير ابن كثير (٦/٢١٦).

محله القلب وأي خوف أعظم من ذلك الخوف الذي لا يدرى صاحبه إلى أين يصار به؛ إلى جنة أم إلى نار ؟ تخيل نفسك في بعض مواقف الدنيا، في أمر دنيوي عما قليل تتجاوزه، وتشتغل بغيره كيف تقلق، تترقب؟ فكيف بهذا الأمر الأبدي، السرمدي، الذي هو نهاية حال العبد ؛ فلذلك كانت القلوب واجفة .

[أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ]: أبصار أصحاب القلوب خاشعة، أي: ذليلة؛ لأن الخشوع هو الهبوط قال تعالى: [تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ] [فصلت:٣٩]. ولا ريب أن القلب هوخبيئة العبد، ولا ريب أن العين، أعظم ما يظهر عليه الأثر. فالعين هي المرآة التي تكشف عما في القلب. ولما وصف الله حال الظالمين، قال: [يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۚ] [الشورى:٤٥] !

[يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾]: تساؤل يكشف عن قلق، وتوتر، وعجب لا ينقطع. [لَمَرْدُودُونَ]يعني: معادون، [فِى ٱلْحَافِرَةِ] الحافرة: هي الحياة بعد الموت. يعني أنعود نحيا بعد أن متنا ، كما وصف الله ﷻ هذا في موضع آخر: [وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾] {يس:٥١} والنسلان هو الإسراع في المشى، [قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا] {يس:٥٢}ما كانوا يتوقعون هذا ولا يأملون ؛ لأنهم كانوا منكرين للبعث، [هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ] {يس:٥٢}، فيالها من مفاجأة ، وأي مفاجأة ! صدمة هائلة لهؤلاء المنكرين للبعث. وتأمل وقع هذه الآيات على منكري البعث!، لا ريب أن مثل هذه الآيات هزت كثيراً من القلوب ودعتها إلى الإيمان ، إلا من أبى. وقيل في تفسير الحافرة، أي: الأرض؛ يعني: أنحن مردودون إلى الأرض التي كنا نسكنها ؟ وقيل، وهو قول بعيد: [ٱلْحَافِرَةِ]النار. ولا يستقيم هذا مع قولهم [لَمَرْدُودُونَ]؛ لأنهم ما كانوا فيها حتى يردوا إليها. وأصل الحافرة في لغة العرب: رجوع المرء من الطريق الذي أتى منه. تقول العرب : " رجع فلان إلى حافرته "

كأن الإنسان إذا سلك درباً حفر أثره في طريقه، فإذا قيل رجع فلان إلى حافرته، كأنما قيل رجع أدراجه، على سيرته، وخطته التي مشاها.

[أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً]: يعني بعد أن كنا عظاماً، بالية، فانية، فارغة يصوِّت فيها الريح؛ لأنها لما بليت، صارت مجوفة، فصارت الريح تصفر فيها، تدخل، وتخرج. وقيل أيضاً من معاني نخرة: مرفوتة، يعني مدقوقة محطمة .

[قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾]: يعني إن كان الأمر كذلك، فهذه رجعة لا خير فيها، والعياذ بالله؛ لأنهم يعلمون أنهم أساءوا في الأولى، فهم غير متفائلين بهذه الرجعة، فلذلك حكموا على رجعتهم بأنها خاسرة ،لا خير فيها .

[فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾]: يعني كل ما في الأمر، فالأمر هين بالنسبة لله ﷻ، أنها زجرة واحدة، وحسب، والزجرة: هي الصيحة، لكنها بهذا التعبير زجرة تعطي معنىً أشد، من كلمة صيحة، ففيها معنى العنت، والعنف، زجرة واحدة، لا مثنوية فيها.

[فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾]: يعني فإذا القوم تنشق عنهم قبورهم، ويبعثون؛ ليكونوا في الساهرة، والساهرة: هي الأرض بعد التبديل. يقول الله ﷻ: [يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾] {إبراهيم:٤٨}، فالأرض التي يبعث عليها الناس، أرض كالقرصة، وكالخبزة ، ليس فيها معلم لأحد؛ فإن الله أخبر عن الجبال فقال تعالى: [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾] {طه:١٠٥-١٠٧} ، مشهد مهيب، مهول، تعود الأرض ممدودة كمد الأديم، ليس فيها معلم لأحد عن سهل بن سعد ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ".قَالَ: سَهْلٌ: أَوْ غَيْرُهُ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ"رواه البخاري[1]؛ لا جبل يشرف منه الإنسان، ولا وادٍ يُكنُّه، بل يصبح الناس قياما على حد سواء. وقيل في تفسير الساهرة: أنها اسم مكان معروف من الأرض في الشام،

[1] صحيح البخاري (٦٥٢١).

وقيل : إنه جبل إلى جانب بيت المقدس. وأقرب هذه الأقوال أن الساهرة هي الأرض التي تكون بعد التبديل، أرض ليست كأرضنا التي نحيا عليها الآن، بل أرض مهيأة لاجتماع الخلائق عليها، منذ آدم عليه السلام إلى آخر من يموت على وجه الأرض، ليس الآدميين فحسب، بل كما سيأتي إن شاء الله، [وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾] [التكوير ٥] ، فالعشار، والوحوش، وكل شيء يجتمع على تلكم الأرض.

هذه الآيات العظيمة تتضمن إقرار عقيدة البعث، بأوضح ما يكون، وبأشد ما يكون! فالله سبحانه وتعالى يبدأ بذكر ما يجري يوم القيامة؛ من رجف الأرض، فيخبر الله ﷻ بأن هذه الأرض المستقرة، التي امتن علينا باستقرارها في موضع، فقال : ([أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا] {النمل:٦١}، ضع يدك على الأرض تحس أنها مستقرة، لم يدر بخلدك يوماً أن تتحرك، وتهتز، هذه الأرض ترجف [يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ]، ورجف الأرض مقارن للنفخة الأولى، فلا تعارض بين التفسيرين، ولا مانع من الحمل عليهما معاً، [تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ] نفخة أثر نفخة. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ" قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَالَ: "أَبَيْتُ" قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا قَالَ: "أَبَيْتُ" قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ: "أَبَيْتُ" متفق عليه[1]. فالله أعلم، بأي تقدير تلك الأربعين، ويكون حال الناس، ما وصف الله تعالى من وجف القلوب، واضطرابها، ومن خشوع الأبصار وقلقها، وحيرتها، فزعاً مما هي مقبلة عليه. ويتساءل المنكرون للبعث في ذلك المقام، تساءل المشدوه، الفزِع، المصدوم: [أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ] لما كنا فيه من حياة، معادون للأرض التي كنا نسكنها ؟ يا لها من خسارة فادحة ! فهم قد علموا من حالهم أنهم كانوا مكذبين، وحق عليهم ما توعدهم به نبيهم ﷺ، فأدركوا أن أمرهم في خسار، وسفال، فلذلك جزموا [قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ]، وبين الله تعالى أن الأمر حق، لا مثنوية فيه: [فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ].

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: إثبات النفختين.

---

[1] صحيح البخاري (٤٨١٤)، صحيح مسلم(٢٩٥٥).

الفائدة الثانية: عظم شأن الساعة. ولهذا كان من رحمة الله ﷻ أن الساعة، لا تقوم على مؤمن، لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَىْءٍ إِلاَّ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ"رواه مسلم [1] .

الفائدة الثالثة: بيان مظاهر الخوف؛ الظاهرة، والباطنة؛ الباطنة في القلوب، والظاهرة في الأعين.

الفائدة الرابعة: صدمة الكفار يوم القيامة، وشدة ندمهم.

[هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾]

[هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾]: ما أجمل التعبير القرآني وألذه، وما أحسن سبكه ونظمه، حينما ينتقل من أسلوب إلى أسلوب ، فقد أتى بطريقة الاستفهام، لتنبيه الأفهام، ولفت الأنظار. والمخاطب نبينا محمد ﷺ، وما من قصة جرى تكرارها في القرآن، كقصة موسى عليه السلام ! ويعرضها بصور متنوعة. وسر ذلك، والله أعلم، ما تضمنته قصة موسى عليه السلام من المواقف الجليلة، والعبر العظيمة، ولتشابه حال موسى، عليه السلام، بحال محمد ﷺ؛ فإن موسى عليه السلام أخرج أمته من الكفر، والظلم، والبغي، وأسس دولة كما محمد ﷺ. ولأن اليهود كانوا شوكة في جنب المسلمين في المدينة، فأراد الله أن يبين حالهم، وأخلاقهم، وصنيعهم مع نبيهم.

وها هنا إشكال ! قد يقول قائل: أليس الله تعالى ذكر ما يدل على أن قصة يوسف عليه السلام أحسن القصص؛ فإنه قال بين يدي سورة يوسف: [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾] {يوسف:٣}، فلم لم يقع تكرارها، كما تكررت قصة موسى عليه السلام ؟

---

[1] صحيح مسلم (١٩٢٤).

والجواب: أن قصة يوسف، عليه السلام، قصة من القصص، وقصص غيره من الأنبياء أعظم فائدة ، فإن أنباء الرسل، وما جرى بينهم وبين أقوامهم من المسائل حول الكفر والإيمان، أكثر أهمية من قصة يوسف عليه السلام، فلا يلزم أن يكون هذا الاستهلال في أول سورة يوسف خاصاً بتلك القصة، وإنما هو وصف لقصص القرآن جميعاً، لكن، لما كانت هذه السورة من أولها إلى آخرها قصة، ناسب ذكر ذلك في أولها. وربما يقال : أنه أتى بهذا التعبير " أحسن القصص " بين يدي قصة يوسف، لأنها من الناحية القصصية البحتة، فيها ما ليس في غيرها من السور، من عنصر المفاجأة، والتنقل من حال إلى حال، ومن نعمة إلى نقمة، ومن نقمة إلى نعمة، ومن منحة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة، ومن عز إلى ذل، ومن ذلٍ إلى عز. ففي هذا التنوع، من الناحية القصصية الفنية البحتة ما ليس في سواها من القصص.

[إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾]: لم يسق سبحانه جميع قصة موسى عليه السلام هنا، وإنما ذكر سبحانه موقفاً هاماً، مؤثراً، عظيماً، جليلاً، وهو تكليم الله له تعالى له دون واسطة . فإن موسى، عليه السلام، لما سار بأهله من صحراء مدين، وقارب الطور، آنس ناراً فقصدها، فلما اقترب من النار كلمه الله عز وجل. فكان هذا الموقف بالنسبة لموسى أشرف موقف، ولا ريب.

والمناداة هي الصوت لمن بعُد ، كما أن المناجاة هي الصوت لمن قرب، [وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾] {مريم:٥٢} فالمناجاة للقريب، والمناداة للبعيد.

[بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾] : المقدس: المطهر، واسمه طوى ، هكذا رجح ابن كثير، رحمه الله، وغيره. وقيل: أنه بمعنى طء، يعني أمر لموسى بالوطء، والسير عليه. وقيل: معنى طوى: الذي طويته، أي طويته يا موسى وسرت فيه. وقيل: أن طوى: بمعنى مرتين، يعني: إذ ناده ربه بالواد المقدس مرتين، وكأنه قصد بالمرتين المناداة، والمناجاة، فصارت الأقوال في معنى " طوى " أربعة، أقربها أنه اسم للوادي .

[ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ]: هذا هو نص النداء، نص تكليم الرب لموسى الكليم. وفرعون لقب يطلق على من ملك مصر من أهلها. وفي سورة يوسف سمى الله صاحب مصر ملكاً فقال:

[وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ] {يوسف:٥٠} وفي هذا إشارة إلى أن ملوك مصر زمن يوسف، عليه السلام، غير الفراعنة، وهم (الهكسوس). وهم قبائل أغارت على مصر في فترة معينة، أثناء حكم الأسر الفرعونية المتعاقبة. أما في زمن موسى، عليه السلام، فقد عاد الفراعنة إلى ملك مصر . والمقصود أن (فرعون) لقب لمن ملك مصر، كما أن (كسرى) لقب لمن ملك الفرس، و(قيصر) لقب لمن ملك الروم، و(المقوقس) لقب لمن ملك القبط، و(النجاشي) لقب لمن ملك الحبشة ، و(الخاقان) لقب لمن ملك الترك، وهكذا .

[ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧]: أي تجاوز الحد وتمرد وتجبر، قبحه الله، فكان يقتل أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم. وبلغ به الأمر أن خرج على قومه مرة بصورة المجتهد، المستفرغ لطاقته، واجتهاده، ونصحه، قائلاً: [مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي] {القصص:٣٨}! فادعى الألوهية، كما ادعى الربوبية هنا.

[فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨]: هذا من التلطف في الدعوة! لم يقل له: زكِّ نفسك! بصيغة الأمر، وإنما تلطف في الأسلوب فقال له: [هَل لَّكَ] يعني: أدعوك، وأعرض عليك [أَن تَزَكَّىٰ]: والتزكية تعني التطهر، بتنقية النفس من شوائب الشرك، والغل، والأخلاق الرذيلة، والتصرفات القبيحة .

[وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩]: وهذا لون آخر في التلطف، فإنه وضع نفسه بموضع الهادي، والدليل كأنما يقول: أنا كالذي يمشي بين يديك، والدليل الذي يدلك على الدرب. وهذا من التواضع في الدعوة لأنه يخاطب ذا سلطان، ومعلوم أن الخطاب لأصحاب المقامات، والوجاهات، ليس كالخطاب لآحاد الناس، فينبغي أن ينزل الناس منازلهم. يقال إن واعظاً دخل على أحد الخلفاء، فوعظه موعظة جافة، غليظة، فقال له الخليفة : يا هذا! إن الله قد بعث من هو خير منك، إلى من هو شر مني، فقال : [فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤] {طه:٤٤}، ولا ريب أن الله تعالى يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف .

وفي قوله: [إِلَىٰ رَبِّكَ] تلطف أيضاً؛ حيث ذكَّره بربوبية الله له. وقوله: [فَتَخْشَىٰ] : أي يثمر ذلك لك خشية، وينقشع ما في قلبك من قسوة وغلظة.

إذاً غاية الدعوة التزكية، وثمرتها الخشية [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] {فاطر:٢٨}، إذا أردت أن تقيس حالك فانظر خشية الله في قلبك. العالمون بالله حقاً هم أهل الخشية. لا تنظر إلى ما عندك من كتب، ودفاتر، بل انظر إلى ما في قلبك، فإن كان قلبك مخبتاً، خاشعاً لله ﷻ، فأنت من أهل العلم؛ لأن الخشية ثمرة هذا العلم. وإلا لا فائدة من كثرة المرويات، والمحفوظات، مع قسوة في القلب. وليس في هذا تقليل من أهمية التحصيل، ولكن على طالب العلم أن يوظف علمه في خشية الله، فإن العلم النافع، هو الذي يورث الخشية.

[فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾] : أي العلامة الباهرة.

لما أبى واستكبر عرض عليه أن يريه آية، [قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ] [الشعراء:٣٠-٣٣] يعني: ألقى عصاه، فاستحال حيةً حقيقية، وأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي تبرق بيضاء، من غير سوء! آيتان عظيمتان، باهرتان، حتى إنه أرتج على فرعون، وأخذ يخبط في التهم..

[فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ] : يعني: ومع أنه تحدى، ولم يصمد أمام التحدي ، فقد كذب وعصى .

[ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ] : وفوق ذلك، ما ترك الأمر مغلقاً، بل أدبر يسعى سعياً حثيثاً في الصد.

[فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾]: أي جمع الناس، وأعلن قائلاً: [أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ]

يعني زاده ظهور الحق إصراراً على الباطل، حتى إنه قال لهامان، وزيره: [يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ] {غافر:٣٦- ٣٧] وغير ذلك من صنوف الطغيان.

[فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾]: اختلف المفسرون في هذا، فقيل: إن المراد بالآخرة: آخر كلامه، والأولى أول كلامه، فآخر كلامه [أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ]، وأول كلامه [مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي] {القصص:٣٨} ، وقيل: أن المراد بالآخرة والأولى: الآخرة، والدنيا. فالله تعالى أذاقه عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة؛ عذاب الدنيا بالغرق، ومن قبل الغرق الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأما في الآخرة، فلا يخفى: [ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾] {غافر:٤٦}؛ وإنما قدم الآخرة لأنها أشد، وقيل في تفسير الآخرة والأولى: يعني أول عمله، وآخره ، وهو قريب من المعنى الأول .

[إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾]: أي موعظة، وتوقظة، لمن في قلبه خشية، لأن الآيات، والمواعظ لا ينتفع بها إلا أهل الخشية .

فالمعنى الإجمالي لهذه الآيات: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلاً للكافرين، المنكرين للبعث، بقصة جبار من الجبابرة الظالمين، وكيف كانت نهايته، فذكَّر الله تعالى بقصة موسى، عليه السلام، حينما أمره ربه أن يقصد فرعون بسبب طغيانه، وجبروته، وتمرده، وأن يعرض عليه الإيمان، وطريق الهدى، والخشية، والتزكية، فركب رأسه وأبى، وبالغ في إنكاره، وجبروته، وكفره، فادعى الربوبية، بعد أن كان قد ادعى الألوهية . فكان أن أذله الله تعالى، وأخزاه خزياً ما بعده خزي، فأهلكه الله بألطف الأشياء وهو الماء، فأغرقه فيه، ثم يوم القيامة يحرقه بالنار. وفي هذا عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فلينتبه هؤلاء المشركون، المنكرون للبعث، الذين يظنون أنهم إنما يمتعون في هذه الدنيا، ثم ينتهي كل شيء؛ فلا بعث ولا نشور.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: عناية القرآن بقصة موسى، عليه السلام، وكثرة تكرارها، وتنوع عرضها .

الفائدة الثانية: إثبات صفة الكلام لله، سبحانه، بصفة المناداة، فهو يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء.

الفائدة الثالثة: أن كلام الله، ﷻ، متعلق بمشيئته؛ لأنه قال: [هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ]، و (إذ) تدل على ظرفية زمنية، فهذا يدل على أن الله يتكلم متى شاء، خلافاً للأشاعرة، والكلابية، والسالمية، وغيرهم من فرق الصفاتية، الذين يقولون إن كلامه هو المعنى القديم القائم في نفسه، وليس من صفاته الفعلية، بينما يعتقد أهل السنة إن كلام الله قديم النوع، حادث الآحاد، فهو قديم النوع بمعنى أن الكلام صفة ذاتية له باعتبار أصله، ولكنه يتجدد باعتبار آحاده، وأفراده ودواعيه .

الفائدة الرابعة : فضل موسى، عليه السلام. ولهذا يقال: موسى الكليم .

الفائدة الخامسة: فضل وادي طوى وشرفه ؛ لأن الله طهره فقال: [بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى].

الفائدة السادسة: قبح الطغيان وفاعله، [ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ]، فالطغيان مرذول، مذموم.

الفائدة السابعة: التلطف في الدعوة، لاسيما مع أهل السلطان ، فلكل مقام مقال.

الفائدة الثامنة: بيان غاية الدعوة وثمرتها، [فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ] .

الفائدة التاسعة: تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات، التي يسميها بعض العلماء المعجزات. فلما علم الله تعالى، أن من الناس من لا يستجيب إلا بآية ظاهرة، خارقة للعادة، أجرى على أيدي رسله هذه الآيات، ولم يكلهم فقط إلى مضمون الدعوة، بل نوَّع دلائل النبوة. وأعظم الأنبياء آية هو نبينا محمد ﷺ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ ، أَوْ آمَنَ - عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"متفق عليه[1]، فأعظم آيات نبينا، ﷺ،القرآن العظيم، آية خالدة ، وها نحن نقرأ هذه الآيات العظيمة فنعجب، وننبهر، ونندهش من تأثيرها، ومعانيها، وحكمها، كما أيده بآنشقاق القمر والإسراء والمعراج، وغيرها.

الفائدة العاشرة : غلظ كفر فرعون، وشدة عناده. ولا يعلم أحد من البشر اشتهر بإنكار الربوبية مثل فرعون، فإنه أنكر ربوبية الله، وادعاها لنفسه، أنكرها بقوله: [وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ]

[1] صحيح البخاري (٧٢٧٤)، صحيح مسلم(١٥٢).

{الشعراء:٢٣}، وادعاها لنفسه في قوله: [أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ]، ثم رتب عليها دعوى الألوهية بقوله [مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي] {القصص:٣٨} ! فلذلك صار مضرب المثل في الكفر، الجبروت، والإلحاد .

الفائدة الحادية عشرة: شدة أخذ الله للظالم الطاغي [إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ] {هود:١٠٢}.

الفائدة الثانية عشرة : وجوب الاعتبار، والاتعاظ بمصارع الظالمين، [إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾] .

الفائدة الثالثة عشرة: أن الخشية سبب الانتفاع بالمواعظ، لأن صاحب القلب القاسي مهما رأى، ومهما سمع، ومهما وقع له، مقفل على قلبه، أما صاحب القلب اليقظ الواعي، الذي تسري فيه نسائم الخشية ثم يتأثر، تأمل في حال أهل العلم النافع: [قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ﴿١٠٩﴾] {الإسراء:١٠٧- ١٠٩}، ما الذي أبكاهم ؟ مجرد آيات طرقت أسماعهم ، لكن هذه الآيات ليست مجرد حروف معجم، بل حروف وكلمات وجمل ذات معاني ، لامست قلوبهم، فانفعلت تلك القلوب، وهملت تلك العيون، وخرت تلك الأعضاء خروراً، من أعلى إلى أسفل [يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا] يجعلون أذقانهم في الرغام إجلالاً لله، وخشية له،. وتأمل في حال مؤمني أهل الكتاب: [وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾] {القصص:٥٣}، وأخبر الله تعالى عنهم في موضع آخر، فقال: [وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾] {المائدة:٨٣}، فليحرص كل مؤمن على أن يحيي قلبه بخشية الله، هذه خشية تلين القلب ، وتجعله حسن الاستقبال للمواعظ والعبر، والانتفاع بالآيات الكونية والشرعية. نسأل الله أن يرزقنا خشيته في السر والعلن .

[ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾]

[ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾]: هذا استفهام تقريري، لآستشارة عقول المنكرين للبعث. [ءَأَنتُمۡ] والجواب معروفٌ سلفاً، فقد قال الله ﷻ: [لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ] {غافر:٥٧}، فالله تعالى ينعى على هؤلاء المنكرين للبعث، والمستبعدين له بقولهم [مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ] {يس:٧٨} بأن الذي خلق السموات السبع الشداد قادر على أن يعيد خلقهم، كما قال في الآية الأخرى: [وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ] {الروم:٢٧}، ففي هذا إقامة لحجة عقلية، حسية، على هؤلاء المنكرين للبعث، وقال: [أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم] {يس:٨١}. ثم إنه سبحانه وتعالى بين كيفية خلق السماء فقال: [بَنَىٰهَا]، على الصفة التي جاءت الآيات بعدها مفسرة لها، ومعنى بناها: أي شيدها وأقامها .

[رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾]: ومرجع الضمير إلى السماء، والمراد بالسمك: الارتفاع. وقيل إن السمك المقصود به السقف، فما بين السماء والأرض مسافة هائلة طويلة. ومعنى سواها: أي جعلها معتدلة الأرجاء، واسعة الفناء، لا فطور فيها، ولا تفاوت. والناظر في هذه السماء يسرح طرفه في أرجائها، ويعجب من دقة خلقها، ومتانته، لا يجد فيها أدنى ثقب، كما قال تعالى: [فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾] {الملك:٣} يعني من شقوق وصدوع، [ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾] {الملك:٤}، فيكِلُّ الطرف عن العثور على مقدار ثقب إبرة في هذه السماء المحكمة ذات الحبك . فيا لها من آية عظيمة! ولهذا ندب الله المؤمنين إلى التفكر فيها، فقال تعالى: [أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾] {الغاشية:١٨}، وهذا من طرائق القرآن في بناء العقيدة، وهو توجيه العقول والأنظار إلى مظاهر الربوبية ؛ ليحصل توحيد الألوهية .

[وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾]: مرجع الضمير إلى أقرب مذكور وهو السماء. ومعنى [وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا]: أي جعل ليل السماء مظلماً. فمعنى أغطش أي أظلم. ومعنى [وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾]: أي أظهر ضحاها

بنور الشمس، فالشمس إذا بدت في السماء بان الضحى، وأسفر المكان، وإذا احتجبت الشمس عن هذه السماء عادت الظلماء. وهي دورة متكررة في اليوم والليلة. كما قال تعالى: [يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ] {الزمر:٥} ، وفي تعاقب الليل والنهار حكم بالغة، يطول المقام بذكرها، لا تقوم حياة الآدميين والحيوان والنبات إلا بها، فلو اختل ذلك النظام لحصل اضطراب في الحياة البشرية؛ ولهذا قال الله ﷻ: [قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢] {القصص:٧١-٧٢}، فحياة الإنسان، وحياة الحيوان، وحياة النبات، تتأثر بتعاقب الليل والنهار كما هو معروف، وكما كشفت عنه العلوم الحديثة، بأوضح ما يكون. ويحسن أن يكون لطالب العلم نوع اطلاع على العلوم الحديثة في الفلك، وفي الفيزياء، وفي علم وظائف الأعضاء، وفي علم النبات، وفي مختلف العلوم الحديثة؛ لأنها تزيد المؤمن إيماناً، وإن كانت لا تزيد الكافرين إلا ضلالاً، كما قال ربنا ﷻ: [قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١] {يونس:١٠١}، فالمؤمن، صاحب القلب المفتوح تزيده هذه المكتشفات، وهذه الحقائق العلمية إيماناً بقدرة الله ﷻ، وكمال ربوبيته. وقد ألف بعض الملحدين الشيوعين قبل نحو خمسين سنة كتاباً سماه " الإنسان يقوم وحده "، يريد أن يقرر أن الإنسان مستغن بنفسه، وأنه ليس بحاجة إلى إله، فألف أحد الغربين كتاباً يرد به عليه بعنوان " الإنسان لا يقوم وحده ". وهذا المؤلف رجل من النصارى، لكن عنده إيمان بالربوبية، واعتضد بالعلوم ، والكشوف العلمية الحديثة، على بيان حاجة الإنسان إلى الرب، وترجمه بعض المعرِّبين باسم " العلم يدعو إلى الإيمان". وهو كتاب مفيد؛ لأنه يوقف المؤمن، ويوقف طالب العلم، على حقائق مذهلة من خلق الله ﷻ، وحكمته، ودقيق صنعه، وتدبيره في الأنفس، وفي الآفاق، مما يزيد المؤمن إيماناً.

[وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠]: معنى [دَحَىٰهَآ] أي بسطها، وقيل: حرثها، وشقها. وها هنا إشكال مشهور، وهو ما يتعلق بترتيب خلق السموات والأرض، فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة

فصلت: [۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾][فصلت:٩-١٠]ثم قال: [ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا][فصلت:١١-١٢]، فهذا الترتيب يدل على أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، ثم خلق السماء ، والذي بين أيدينا ها هنا، أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ بذكر السماء فقال: [ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾]، فجعل ذكر الأرض بعد ذكر السماء، وهذا في ظاهره مخالف لما في سورة (فصلت)! ولأجل هذا الإشكال سلك بعض المفسرين مسالك فيها نوع تكلف، فمنهم من قال إن معنى قوله: [وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ] أي قبل ذلك، ولا تخفى شدة التأويل في هذا؛ بأن يقلب اللفظ إلى ضده ، ولو شاء الله لقال (قبل ذلك) . وقال بعضهم، ويروى هذا عن مجاهد [وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ] أي مع ذلك، فجعل " بعد " بمعنى " مع "! ولكن الجواب عن هذا هو ما قاله حبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: أن الخلق غير الدحو ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض أولاً، ولم يدحها ، ثم استوي إلى السماء فخلقها، وسواها ، ثم بعد ذلك دحا الأرض[1]. فيكون سبحانه خلق الأرض في يومين كما أخبر في سورة فصلت ، لكنه خلقها في يومين من غير دحو ، ثم بعد ذلك استوى إلى السماء فخلقها وسواها كما أخبر، ثم دحا الأرض بعد ذلك. وبذلك يزول الإشكال .

[أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾]: وهذا يدل على أن معنى [دَحَاهَا] أي شقها، وبسطها، فكأن هذه العملية تمت بعد خلق السماء، وهو إخراج مائها؛ بأن جعلها تتفجر ينابيع، ويجرى فيها الماء من الأنهار. وأخرج هذه النباتات الهائلة، التي تملأ الغابات، والبساتين. والمرعى. اسم لمكان الكلأ والعشب، ومرجع الضمير إلى الأرض .

---

[1] تفسير الطبري (٢٤/٩٢).

[وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾]: لما ذكر السماء، وذكر الأرض، ذكر الجبال. والله تعالى يقرن هذه المخلوقات العظيمة في غير ما موضع. فالله تعالى قال مثلاً: [إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ] {الأحزاب:٧٢}، وقال: [أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾] {الغاشية:١٧-٢٠} ومعنى [أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾] أي أثبتها، وقررها في الأرض؛ حتى لا تميد، ولا تضطرب، كما قال في آية أخرى [أَن تَمِيدَ بِكُمْ] {النحل:١٥} أي لئلا تميد بكم. والجبال في الحقيقة خلق عجيب؛ إذا رأى الإنسان الجبال الضخمة، الهائلة، الشاهقة، وقف متصاغراً أمام قدرة الله ﷻ، يرى هذا الخلق الهائل، العظيم، الذي يشق أجواز الفضاء بثقله، وصلابته، فيدرك ضآلة خلقه أمامه .

[مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾]: هذه هي الحكمة من المظاهر الكونية التي ذكرت. ومعنى [مَّتَٰعًا] أي متعة، ومنفعة، وسخرة. فربنا، ﷻ، سخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة، وباطنة. [وَلِأَنْعَٰمِكُمْ] والأنعام هي الإبل، والبقر، والغنم. وهذه الأصناف الثلاثة أكثر ما يلابس الناس؛ لعظيم منفعتها لهم؛ من حيث الركوب، والأكل، والحلب، ونحو ذلك ، فالحاجة إليها ماسة. ولهذا تعلقت بها أحكام الزكاة دون غيرها من المخلوقات والبهائم .

وهذه الآيات في الواقع تكشف لنا عن طريقة القرآن العظيمة، البديعة، في ذكر ملكوت السموات والأرض، وتوظيف ذلك في تقرير الإيمان بالله، ﷻ، وترتيبه لما بعده؛ فكما أن الله ﷻ ذكر تلك الآيات في سورة النبأ، ثم عقب عليها بذكر البعث، وما يحصل يوم القيامة، صنع سبحانه وتعالى ذلك في هذه السورة فقال: [مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ]، انظر هذه النقلة! بعد أن ملء قلوبهم، وأبصارهم، بهذه الصور، والمعاني، صاروا الآن مهيئين لإلقاء الحجة الثقيلة عليهم، الراحضة لإنكارهم البعث. إذاً هذا الخلق البديع، لم يخلقه الله عبثاً، ولن يذهب سدىً، خلق السموات والأرض بالحق، وتمام الحق بالفصل الثاني الذي يقع بعد الطامة الكبرى، فإن أفعاله سبحانه كلها معللة محكمة .

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: بيان دليل من دلائل البعث، والرد على المنكرين، وذلك في قوله تعالى: [ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾]، فإذا كان الله، سبحانه وتعالى، خلق السموات والأرض على عظمهما، فمن باب أولى، وأحرى أن يعيد خلق الإنسان .

الفائدة الثانية: الاستدلال على الأخف بالأشد، وذلك في قوله تعالى: [ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾].

الفائدة الثالثة: بديع خلق السموات والأرض .

الفائدة الرابعة: تسخير الله للمخلوقات؛ متاعاً لبني آدم، كما قال الله تعالى: [مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ].

الفائدة الخامسة: أن الأصل في الأشياء الإباحة والحل .

[فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾]

[فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى] الطامة اسم من أسماء القيامة وهي الساعة، والمقصود بها النفخة الثانية التي يحصل بها البعث؛ بدليل ما بعدها من الآيات. وللساعة أسماء متعددة؛ عدَّ القرطبي: منها ثمانين اسماً ، وعدَّ ابن كثير: خمسين اسماً. وليعلم أن الأسماء التي سماها الله تعالى، أو سماها نبيه ﷺ أعلام، وأوصاف، كما أن أسماء الله الحسنى أعلام، وأوصاف، وأسماء نبيه ﷺ أعلام، وأوصاف، وأسماء القرآن أعلام، وأوصاف، وكذلك أسماء القيامة أعلام وأوصاف؛ فهي أعلام من حيث دلالتها على ذات المسمى، وأوصاف من حيث اختصاص كل اسم منها بوصف يميزه عن غيره. فالطامة، والصاخة، والحاقة، والغاشية، والآزفة، كلها أسماء لمسمى واحد، لكن كل اسم منها يحمل دلالة خاصة؛ فالصاخة تصخ الآذان، والقارعة تقرع القلوب، والآزفة قريبة الوقوع، والطامة لأنها تطم كل هائلة سواها؛ أي تغمرها. وكل داهية دونها. ولذا سماها (الكبرى)، وما عظمه الله فلا ريب أنه عظيم .

[يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾]: قيل أن هذا جواب "إذا" في قوله: [فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾] أي حينئذ يتذكر الإنسان ما سعى. وقوله : [الْإِنسَانُ] أي جنس الإنسان، من مؤمن وكافر، وقوله: [مَا سَعَى] أي في الحياة الدنيا، ما قدم، وما فَرَط منه. قال ﷺ : " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا "رواه مسلم[1] حينما يُبعث الإنسان يوم القيامة، يمر عليه شريط الحياة التي حياها ستين سنة، أو سبعين سنة، أو تسعين سنة، أو أقل، أو أكثر، يتذكره كله، كما قال تعالى: [يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ] {آل عمران:٣٠}، وكما

[1] صحيح مسلم (٢٢٣).

قال تعالى في سورة الفجر : [يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ] {الفجر:٢٣} هذه الذكرى لا فائدة من ورائها، إلا إقامة الحجة .

[وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾]: [وَبُرِّزَتِ]أي أظهرت، كما في الحديث الصحيح : "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا "رواه مسلم[1]، وهذا يدل على أنها خلق عظيم هائل، وأنه مشهد مخوف .

[فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾]: ابتدأ التقسيم ، ومعنى [طَغَىٰ] أي تجاوز؛ لأن الطغيان معناه التجاوز، كما قال الله، ﷻ: [إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ] {الحاقة:١١} يعني لما تجاوز حده، والمقصود هنا أي تكبر، وتجبر، وعصى، وكفر .

[وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾]: [وَءَاثَرَ] بمعنى قدّم، وفضّل الحياة الدنيا على الآخرة، وذلك باتباع الشهوات، فلم يؤمن، ولم يستجب، وقال كما قال هؤلاء المنكرون للبعث: (أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر)، فنظرتهم هي النظرة الدنيوية المادية، التي ترى أن الذكي، والحاذق، هو الذي يعب من الشهوات عباً، ولا يلزم نفسه بشيء. وهذه الحياة الدنيوية هي حياة من يسمون بتعبير العصر (العَلمانيين) نسبة إلى العالَم، أي الدنيا، لا نسبة إلى العِلم، كما يلفظها بعض الناس، بكسر العين . والترجمة الصحيحة لهذا المصطلح (الدنيويون)، بإزاء (الدينيين) أهل الدين. فهؤلاء لا يعنيهم إلا متاع الحياة الدنيا، ولا ينظرون إلا بمنظور المادة، ولا يعنيهم أمر الدين. فيصدق عليهم قول الله ﷻ: [فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾].

[فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾]: [ٱلْجَحِيمَ] اسم من أسماء النار، وهي علم، ووصف؛ وسميت بالجحيم لتجحمها، يعني لأنها تجحمت من شدة الإيقاد عليها، فهي سوداء مظلمة. ومعنى [ٱلْمَأْوَىٰ]: يعني المرجع، والمآل .

---

[1] صحيح مسلم (٢٨٤٢).

[وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾]: هذا هو القسم الثاني، و[مَنْ] بمعنى الذي، [خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ]: يعني خاف المُقام بين يدي الله، ﷻ. فبين عينيه دوماً أنه سيقف بين يدي الله،قال النبي ﷺ "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"متفق عليه[1]. فالمؤمن يخاف من هذا المقام بين يدي الله. وقد أثمر هذا الخوف نهي النفس عن الهوى، والمقصود بالهوى ما تهواه النفس، أي تميل إليه ، وغلب استعمال الهوى على الأمر المذموم، وإلا فقد يهوى الإنسان أمراً محموداً. فهذا الموفق، والنفس الله لها ثلاثة أحوال: تارة تكون مطمئنة، وتارة تكون أمارة، وتارة تكون لوامة. فالمقصود بقوله: [وَنَهَى ٱلنَّفْسَ] جنس النفس الأمارة، وهي التي تأمر صاحبها بالسوء، كما قال الله، ﷻ، على لسان امرأة العزيز : [۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾] {يوسف:٥٣} . وعلى النقيض منها النفس المطمئنة، ذات القلب المطمئن، قال الله ﷻ: [يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾] {الفجر:٢٧-٣٠} نفس ساكنة، خاضعة، راضية، رضية ، رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺنبياً ، ليس لها نزعات، وتطلعات، وميولات، وهفوات، فهي تحب ما يحب الله، وتبغض ما يبغض الله، هاتان نفسان متقابلتان. وبين هاتين النفسين، نفس تترد جيئة، وذهاباً، تارة تنزعها حالة النفس الأمارة، وتارة تنزعها حالة النفس المطمئنة، وهى التي أقسم الله تعالى بها بقوله: [لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾] {القيامة:٢} يعني التي تتلوم على صاحبها، والتلوم هو التلون؛ بمعنى أن لها لوناً تارة ولوناً تارة أخرى، فهي لما . فنفوسنا في الأعم الأغلب، نسأل الله أن يصلح أحوالنا، نفوس لوامة، فإنِ الإنسان غلّب الإيمان، ووعظ نفسه، نزع إلى جانب النفس المطمئنة، وإن هو اتبع هواه، وتمنى على الله الأماني، مال إلى النفس الأمارة، فلهذا قال الله ﷻ: [وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ]، وهذا يحمل معنى المجاهدة ؛ لأن النفس تحتاج إلى مجاهدة، لابد من فقه النفس ،

[1] صحيح البخاري (٧٠٧٤)، صحيح مسلم (١٠١٦).

يجب أن تعلم أن نفسك التي بين جنبيك، قد أودعها الله الخير والشر، قال سبحانه: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾] {الشمس:٧-٨} كما سياتي في تفسيرها.

[فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾]: الجنة لا يدخلها إلا نفس طيبة، قد تخلصت وتنقت من شوائبها، وعوالقها الرديئة. والمأوى هو المرجع والمصير .

هذا تمام التقسيم، وجواب عن قوله: [فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾] يعني فإذا جاءت الطامة الكبرى انقسم الناس إلى فريقين، فريق مآله إلى الجنة وفريق مآله إلى النار .

[يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾] يعني متى وقت وقوعها، وحصولها، كأنه مأخوذ من رسو السفينة، فالسفينة تمخر عباب البحر، ثم ترسو على الشاطئ .

(فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) : أي في أي شيء أنت من ذكراها، كأنه يقول: ليس تعين أوانها من شأنك ، كما قال ﷺ لجبريل عليه السلام ، لما سأله عن الساعة قال "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل" متفق عليه[1] ، ولما قال له أعرابي : متى الساعة ؟ قال "ما أعددت لها؟" متفق عليه[2] ، فأمر الساعة قد أخفاه الله ﷻ، كما قال في آية الأعراف: [لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ] {الأعراف:١٨٧}، فالساعة قد أخفاها الله، و كل ما تسمعون من دعاوى، ومزاعم، أن انتهاء العالم سيقع عام كذا، وكذا، فهو رجم بالغيب، يقول الله ﷻ: [قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾] {النمل:٦٥} .

[إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾] أي أن موعدها، علمه عند ربك، فهو مما اختص الله تعالى بعلمه، كما أخبر عن ذلك في آخر سورة لقمان فقال: [إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ] {لقمان:٣٤} .

---

[1] صحيح البخاري (٥٠)، صحيح مسلم (٨).

[2] صحيح البخاري (٦١٦٧)، صحيح مسلم(٢٦٣٩).

[إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾]: هذه مهمتك التي ينتفع بها غيرك؛ ليس الإعلان عن موعد الساعة، وإنما النذارة من قرب وقوعها [مَن يَخۡشَىٰهَا] يعني من يخشى الساعة، هو الذي تحصل له النذارة ، والنذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف .

[كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾]: يعني عشية يوم، أو ضحوته، والعشية هي آخر اليوم، والضحى أوله ، كما أخبر سبحانه وتعالى في موضع آخر عنهم، فقال: [نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا] {طه:١٠٤}، سبحان الله ! تمضي كل هذه السنين والعقود، فتبدوا للناظر يوم القيامة، كأنما هي عشية أو ضحاها، فيالها من موعظة بليغة!.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: أن أسماء القيامة أعلام وأوصاف .

الفائدة الثانية: هول القيامة الكبرى؛ لأن الله سماها الطامة .

الفائدة الثالثة: ذكر الإنسان لسعيه بعد البعث .

الفائدة الرابعة: إثبات الجنة والنار.

الفائدة الخامسة: أن الجزاء من جنس العمل .

الفائدة السادسة: إثبات أفعال العباد، وترتب الثواب والعقاب عليها، مما يدل على أن للعبد فعل، ومشيئة، واختيار يؤاخذ عليه، ويثاب عليه .

الفائدة السابعة: كمال عدل الله ﷻ.

الفائدة الثامنة: شؤم الطغيان، وإيثار الشهوات.

الفائدة التاسعة: فضل الخوف من الله، ومجاهدة النفس.

الفائدة العاشرة: تشوف الناس للعلم بالساعة.

الفائدة الحادية عشرة: اختصاص الله تعالى بعلم الساعة .

الفائدة الثانية عشرة: أن العبرة بالإعداد لها .

الفائدة الثالثة عشرة: حقارة أمر الدنيا في الآخرة.

سورة عبس

سورة (عبس) سورة مكية، تتضمن مقاصد عظيمة منها:

المقصد الأول: بيان القيم الحقِيقية.

المقصد الثاني: إثبات البعث وأهوال القيامة .

المقصد الثالث: تقرير توحيد الربوبية .

نزلت هذه السورة في حادثة جرت للنبي ﷺ في مكة، فقد كان يعرض الإسلام على عظماء قريش، وصناديدهم، من أمثال عتبة بن ربيعة، وشيبة بن الربيعة، وأبي جهل؛ رجاء إسلامهم، وإعزاز هذا الدين. وفي هذه الأثناء، أقبل عليه رجل أعمى، وهو عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم ﷺ، جاءه مسترشداً، فعن عائشة رضي الله عنها: أُنْزِلَ: (عَبَسَ وَتَوَلَّى) فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى، أَتَى رَسُولَ الله ﷺفَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَرْشِدْنِي، وَعِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الآخَرِ ، وَيَقُولُ : أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، فَفِي هَذَا أُنْزِلَ) رواه الترمذي [1]، وهذا عتب لا يوجد له نظير في القرآن العظيم، وبيان للقيم الحقيقية التي ينبني عليها تقويم الداعية للذوات، مهما كانت المصالح الموهومة .

[عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾]

[عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾]: [عَبَسَ] أي كلح بوجهه، وقطب بجبينه، وهو كناية عن الكراهة، والامتعاض من قدوم هذا السائل، في هذا الحال.

ومعنى [وَتَوَلَّىٰٓ]أي أعرض، وصد عنه. فقد وقع منه ﷺ حيال هذا الأعمى أمر باطني، وأمر ظاهري، فالأمر الباطني: هو الكراهة، وأما الأمر الظاهري: فهو العبوس و الإعراض عن ذلك السائل .

[أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾]: يعني أن الحامل له على ذلك، هو مجيء الأعمى ومساءلته إياه. وقد وصفه الله تعالى بهذا الوصف [ٱلۡأَعۡمَىٰ] من باب حكاية الحال، وفي هذا دليل على أنه لا بأس بوصف الإنسان

---

[1] سنن الترمذي (٣٣٣١) قال الترمذي حديث حسن غريب. وصحح إسناده الألباني.

بما فيه على سبيل التعريف، لا على سبيل التعيير، ولم يزل العلماء يحتملون الألقاب المعرِّفة بأصحابها، كما نجد ذلك كثيراً عند المحدثين، كقولهم: الأعمش، والأعرج، والطويل، ونحوه، وذلك مما استثنى من الغيبة.

كما أن في وصفه بهذا الوصف [ٱلْأَعْمَىٰ]: فيه نوع إعذار له، بأنه ما دخل على النبي ﷺ، وهو مشغول بهذا الحال، إلا بسبب كونه أعمى، وربما لو كان بصيراً، ورأى اشتغال النبي ﷺ ، بمن بين يديه، لتريث إلى أن يفرغ.

ونلحظ نوع تلطف من الله ﷻ بنبيه ﷺ في العتاب، بأن ساق هذه الحادثة على سبيل الخبر، بالفعل الماضي فقال: [عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ]، ولم يقل : " عبست وتوليت " . وهذا يدل على أنه ينبغي لمن أراد المعاتبة، أو النصيحة، أن يتلطف ولا يعنف، فإن التعنيف قد يكون مدعاة لرد الموعظة، والنصيحة، فليتعلم الدعاة من ربهم كيف يعاتبون، وكيف ينبهون على الأخطاء.

[وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾]: أي ما يعلمك أنه قد يتزكى بسؤاله هذا ، ومعنى التزكية: التطهر من الآثام، والذنوب، والكفر، والفسوق، وغير ذلك، وأصله يتزكى. فلعله بسؤاله هذا، وقوله: أرشدني، علمني مما علمك الله، أن يتطهر. وذهب ابن زيد، رحمه الله، إلى أن معنى يزكى: يسلم ! وأن ابن أم مكتوم حين أتى النبي ﷺ لم يكن مسلماً، فقصد بالتزكية في الآية، الإسلام. إلا إن سياق الآيات التالية يدل على أنه، ﷺ ، كان مسلماً إذ ذاك.

[أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾]: ومعنى الآية، مع التي قبلها، أنه لم يخله من حالين إحداهما " أن يزكى " والأخرى " أن يتذكر " وفي ذلك توجيهان:

التوجيه الأول: أن ذلك من باب التحلية بعد التخلية، أي أن تكون التزكية دالة على التطهر، والتخلص من الآفات، والذنوب، والعيوب، ثم تكون الذكرى من باب التكميل؛ بفعل الطاعات، والبر، ونحو ذلك. فيكون المقصود الترقي.

التوجيه الثاني: أن التزكية يراد بها الأكمل، الأتم، بأن يتحقق له زكاة النفس؛ إما بالإسلام إن لم يكن قد أسلم، وإما بالتوبة النصوح، إن كان قد ألمَّ بخطأ. فإن لم يتحقق ذلك كله، فلعله أن يتحقق بعضه، وهو أن يحصل تذكر، فيكون هذا انتقال من الأعلى إلى الأدنى. فيكون المقصود التنويع .

ولا يخفى أن الذكرى تنفع المؤمنين، كما قال الله ﷻ : [وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾] {الذاريات:٥٥} ، وذلك أن القلب يتراكم عليه من الغفلات، والشهوات، ما يحجبه عن نور الإلهية، فإذا ذكِّر استنار، فتوالي الغفلات، والشهوات يلقي على القلب الران أو الغان، والران أشد من الغان، قال تعالى:[كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾] {المطففين:١٤} فالكسب الحرام والمعاصي تغلف القلب فلا تنفذ إليه المواعظ. والغان دون ذلك، كما قال النبي ﷺ " إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّة " رواه مسلم [1] فإذا ذكر الله ﷻ انقشع، فالذكرى نافعة على كل حال؛ إن لم تنفع نفعاً كلياً، نفعت نفعاً جزئياً.

[أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾]: هذا بداية تقسيم، إما أن يكون المراد باستغنائه أنه استغنى عنك، وزهد فيك، وبدعوتك، وأظهر الإعراض عنك، وإما أن يكون استغنى أي بماله ودنياه، لكونه من أهل الثراء، والجاه. و لا مانع من اجتماع الأمرين، بل الغالب أنهما متلازمان؛ فإن أهل الثراء، والترف، والغنى، غالباً ما يزدرون غيرهم لما يقع في قلوبهم من الاستغناء، والشعور بالترفع عن الآخرين. ولعل هذا هو الواقع، فإن الذين تعرض لهم النبي ﷺ ، كانوا من صناديد قريش، وعظمائها وأغنياءها .

[فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾]: أي تتعرض، وتوليه وجهك، وتبذل له نفسك، ونبينا ﷺ، إنما فعل ذلك، بأبي هو وأمي، رغبة في إسلامهم، لا يريد منهم نوالاً، ولا عرضاً من الدنيا، ولكن حرصاً على إسلامهم؛ ليسلم بإسلامهم من خلفهم. وكان النبي ﷺ، يعاني من ذلك الحرص حتى إن الله نبهه، فقال: [فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾] {الكهف:٦} يعني لعلك مهلك نفسك حزناً، على آثارهم ، واتباعهم، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث.

---

[1] صحيح مسلم (٢٧٠٢).

[وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾]: [ما] إما أن تكون استفهامية، يعني أي شيء يلحقك، ويصيبك، إن لم يتزك هذا الذي استغنى. وإما أن تكون نافية، يعني [وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾] أي ليس عليك ضير، ولا لوم، ولا عتب، ألا يسلم؛ لأن مهمتك البلاغ. وعلى كلا التقديرين، فإن الأمر يدل على أن مهمة الرسول ﷺ، هي البلاغ كما قال تعالى: [إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ] {الشورى:٤٨}. فيجب على الرسول أن يبلغ رسالات ربه، فإن استجيب له فذاك، وإن لم يُستجب له، فلا لوم عليه ولا عتب. قال تعالى: [إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ] {القصص:٥٦}، وقال: [وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾] {يوسف:١٠٣} وفي هذا، أيضاً، درس للدعاة إلى الله، والواعظين، أن يجعلوا همهم، وجهدهم، في بيان الحق، وإيضاحه، وألا يهتموا كثيراً بالنتائج، فإن النتائج إلى الله تعالى.

[وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ]: بذاته وبدافعيته، فهو جاء بنفسه بينما الآخر تقصده وتتصدى له . وتأمل قوله [يَسْعَىٰ] ولم يقل: "يمشي"، بل جاء مسرعاً، كالذي وصف الله في سورة يس: [وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ] {يس:٢٠} هكذا يصنع الإيمان بصاحبه. إذا اشتعلت جذوة الإيمان في القلب، انطلقت الجوارح، وزال عنها الكسل، والوهن، وصار الإنسان يحب، ويسعى، ويستحث الخطى.

[وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾]: قام في قلبه من خشية الله ما حمله على قصد نبيه ﷺ والسؤال عن أمر دينه. والخشية منَّة من الله، ﷻ، فإذا ألهم الله عبده الخشية، ألهمه الخير. والخشية ثمرة العلم، قال الله ﷻ: [إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا] {فاطر:٢٨}، فمن كان بالله أعرف، كان لله أخوف. وفي الآية دليل على أن ابن أم مكتوم، رضي الله عنه، كان إذَّاك مسلماً.

[فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾]: تتلهى وتتشاغل.

فالمعنى الإجمالي لهذه الآيات: أن الله سبحانه وتعالى عاتب نبيه ﷺ في أمر اجتهد فيه، فأخطأ؛ حينما كان مشتغلاً بدعوة صناديد قريش، رغبة في دخولهم الإسلام، حيث أعرض عمن جاءه مسترشداً، مستهدياً، مقبلاً غير مدبر، راغباً غير معرض، فكلح وجهه، وقطب جبينه، هذا والرجل لا يراه، والنبي ﷺ لم يفه بكلمة واحدة، ومع ذلك عاتبه ربه هذا العتاب البليغ المؤثر.

ويتفرع عن ذلك أن من الناس من يتوسع بما يسمى (مصلحة الدعوة) فربما يتقحم بعض المحظورات باسم مصلحة الدعوة. وهذا ليس إليه، فإن الدعوة ليست ملكاً لأحد، لأن الدعوة لله ﷻ، فلابد أن يدعو العبد إلى ربه، وفق مراده، ووفق شرعه، وألا يقدم، ولا يؤخر، ولا يصطفي، ولا ينحي، بناءا على محض رأيه، وتقديره، بل لابد أن يستنير بنور الله .

وهذا دليل على أننا يجب أن ننظر بنور الله ﷻ ، وأن نقوِّم الناس، والأشخاص، بحسب منزلتهم في ميزان الله لا في ميزان البشر؛ فنعظم، ونكرم، من يستحق التعظيم والتكريم. فالمؤمن أحق بالكرامة، والإجلال، وإن كان فقيراً ضعيفاً، صعلوكاً، مملوكاً. والكافر، لا كرامة له ، وإن كان غنياً، شريفاً، كما قال الله ﷻ: [وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ] {البقرة:٢٢١}، وقال: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ] {الحجرات:١٣} .

هذه القيمة الأساسية مما أرساه هذا الدين، وكان به إعلاء لقيمة الإنسان، فالإنسان ليس قدره بماله، وجاهه، وشرفه، ونسبه، وإنما قدره بما يختزن قلبه من إيمان، وتقوى. وقد فقه نبينا ﷺ ، هذا الدرس البليغ، فاستخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين في سفراته، فعن أنس ﷺ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَخْلَفَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَى الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ" رواه أبو داود [1].

وعن خباب بن الأرت ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ] {الأنعام:٥٢}، قَالَ: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ، فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ[2] أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ، فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا، فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: «نَعَمْ» ، قَالُوا: فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا

---

[1] سنن أبي داود (٢٩٣١)، مسند أحمد (١٢٣٤٤) وصححه الألباني.

[2] في رواية (نحب).

بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: [وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾] {الأنعام:٥٢}، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، فَقَالَ: [وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾] {الأنعام:٥٣}، ثُمَّ قَالَ: [وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ] {الأنعام:٥٤}، قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَجْلِسُ مَعَنَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ، قَامَ وَتَرَكَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ: [وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ] {الكهف:٢٨} وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ: [تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا] يَعْنِي عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعَ [وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا] [الكهف: ٢٨] قَالَ: هَلَاكًا، قَالَ: أَمْرُ عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعِ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَالَ خَبَّابٌ: «فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا، قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ»رواه ابن ماجه والبزار [1].

وهكذا أدب النبي ﷺ أصحابه، فعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»رواه البخاري[2]، فلما قال أحدهم لبلال، رضي الله عنه : يا ابن السوداء قال : (إنك امرؤ فيك جاهلية) [3]، فلما كان من هذا العربي القح، إلا أن وضع خده في التراب، وقال لبلال: طأ بقدمك على خدي[4]، يريد أن

---

[1] سنن ابن ماجه (٤١٢٧)، مسند البزار (٢١٣٠) وصححه الألباني.

[2] صحيح البخاري (٣٠).

[3] روي ذلك عن ضمره بن حبيب.

[4] شعب الإيمان (٤٧٧٢) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٦٤/١٠) وهو ضعيف: لضعف أبي عبد الملك، وهو علي بن يزيد الألهاني صاحب القاسم بن عبد الرحمن، بل قال فيه النسائي: "متروك الحديث". وقال في موضع آخر: ليس بثقة. وقال البخاري: "منكر

يستخرج هذا الدغل، هذه البقية الجاهلية من نفسه، حتى يرى الأمور بنور الله، وحتى يزن الأشياء بميزان الله. قال عمر ﷺ: " أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا"رواه البخاري[1] يعني بلالاً، ﷺ ، أجمعين.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: تلطف الله بنبيه ﷺ، في المعاتبة.

الفائدة الثانية: تلطف الله بالأعمى، بما يعذره في فعله .

الفائدة الثالثة: الحرص على التزكية، والتطهر، من الشرك، والمعصية .

الفائدة الرابعة: فضل التذكر [أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾] .

الفائدة الخامسة: ضبط المصالح والمفاسد بالضوابط الشرعية، وتقدير المصلحة والمفسدة بالمعايير الدينية.

الفائدة السادسة: هوان المستغنين عن الهدى، المعرضين عنه، على الله .

الفائدة السابعة: أن وظيفة الداعية هي البلاغ، وليس عليه الهدى [لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ] {البقرة:٢٧٢}

الفائدة الثامنة: حرص المؤمن على الاهتداء، والعلم، وسعيه في تحصيلهما.

الفائدة التاسعة: أن الخشية ثمرة الإيمان الصادق.

الفائدة العاشرة: بشرية الرسول ﷺ ، وإمكان صدور الخطأ منه. فهو بشر يلحقه ما يلحق البشر في الأمور البدنية، والعملية [قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ] {الكهف:١١٠} إلا أنه لا يقر على الخطأ. وهذا هو معنى (العصمة) الحقيقي. فإن من عصمة الله له أنه إذا أخطأ، بين له خطئه ،بخلاف سائر الناس .

وهذا يرد به على الذين يغلون في وصف النبي ﷺ، بغير ما وصفه الله تعالى به، فقد قال تعالى لنبيه: [وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ] {محمد:١٩} فأثبت له ذنباً، كم أثبت للمؤمنين وللمؤمنات،

الحديث." وذكره ابن بطال في شرحه علي البخاري (٨٧/١) من طريق الوليد بن مسلم، عن أبي بكر، عن ضمرة بن حبيب وهذا مرسل ضعيف، ضمرة بن حبيب تابعي، وهو لم يحضر هذه القصة، وأبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم قال عنه ابن حجر في "التقريب": " ضعيف وكان قد سرق بيته فاختلط" وقال الذهبي في "الكاشف": "ضعفوه، له علم وديانة" .

[1] صحيح البخاري (٣٧٥٤).

وأمره أن يستغفر لنفسه، ولهم. وقد استجاب لأمر ربه، فكان يستغفر الله في المجلس مائة مرة، وقال عن نفسه ﷺ: "...وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ" رواه مسلم [1].

[كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾]

[كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ]: [كَلَّآ] كلمة ردع، وزجر، ولعلها لم تقل لنبينا ﷺ في القرآن كله إلا في هذا الموضع، والمشار إليه في قوله [إِنَّهَا]: إما هذه الواقعة التي جرت، ففيها تذكرة. وإما أن المراد بذلك هذه الآيات التي تلوناها وأنزلناها، وهذا أقرب لدلالة ما بعدها .

[فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾]: يعني فمن أراد أن يتعظ، ويدَّكر، فهاهي بين يديه. قال بعضهم: إن مرجع الضمير في قوله [فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ] إلى الله ﷻ، ولكن الأليق بالسياق أن يكون المراد هذه الآيات، بدلالة ما بعدها، لأنه قال : [فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾]، فهذه التذكرة هي هذه الآيات المتلوة، التي حفظت هذه الواقعة، وبهذا نجمع بين القولين.

[فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾] : أي القرآن المتلو، في صحف مكرمة، يعني أنه مكتوب في صحف كريمة، شريفة .

[مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾] : أي في منزلة عالية، رفيعة، بعيدة عن الدنس .

[بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾] : قيل إن السفرة هم كتبة المصحف، يعني القراء كتبة الوحي، أصحاب رسول الله ﷺ، وإلى هذا ذهب قتادة، رحمه الله. وذهب ابن عباس، رضي الله عنهما، في الرواية المشهورة عنه، إلى أن المراد بالسفرة الملائكة، و روي من طريق آخر عنه أنهم أصحاب محمد ﷺ، وهي رواية قتادة عنه، والرواية الأخرى المقدمة، هي رواية العوفي عنه. والأقرب أن المراد بالسفرة الملائكة، وإنما سمي الملائكة سفرة، لأنهم سفراء بين الله وبين أنبيائه . [2]

---

[1] صحيح مسلم (٢٧٠٢).

[2] تفسير الطبري (١٠٩/٢٤).

ووصفت هذه الصحف بأنها (مكرمة) و (مرفوعة) و (مطهرة) لأنها صحف الملائكة التي يستنسخون بها الوحي ويكتبونه فيها. فلا شك أن ما بأيدي الملائكة رفيع القدر، بعيد عن الدنس.

[كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾]: وصف الله تعالى الملائكة بوصفين. [كِرَامٍ بَرَرَةٍ]، كما قال في الآية الأخرى: [كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾] والكريم هو الشريف، وأصل البر ما دل على كثرة الخير، فالبار هو كثير الخير. ولهذا سمي البَر بَراً لسعته . وقد وصف الله عباده الصالحين بأنهم أبرار، ولم يصفهم بأنهم بررة، كما قال الله تعالى: [إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾] {المطففين:٢٢}، أما الملائكة فقد وصفوا بأنهم بررة، لكثرة طاعتهم لله، قال الله ﷻ: [يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾] {الأنبياء:٢٠}، (لا يسئمون)، (لايستحسرون)، وقال: [لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾] {التحريم:٦} عليهم صلوات الله وسلامه، وفي هذا ملحظ لطيف، ذكره الحافظ ابن كثير، رحمه الله، وهو أنه ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله، وأقواله، على السداد، والرشاد. فإذا كان الملائكة، سفراء الله إلى أنبيائه، الذين يحملون الصحف المكرمة، المرفوعة، المطهرة، هذا وصفهم [كِرَامٍ بَرَرَةٍ]، فينبغي لحامل القرآن من عباد الله، أن يكون على طريق الرشاد، وعلى سبيل السداد؛ احتراماً، وصوناً لهذا للكلام الذي بين جنبيه.

[قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾]: هذا دعاء من الله ﷻ على الإنسان. والدعاء منه سبحانه حكم. ولا يستقيم في هذا المقام أن نقول جنس الإنسان، بل ينبغي أن نخصه بالكافر. وقد لاحظ ابن عاشور، رحمه الله، أن ذكر الإنسان في القرآن المكي، غالباً ما يراد به الإنسان الكافر، كما في قول الله تعالى : ([كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾] {العلق:٦}.

فقوله [قُتِلَ] دعاء على الكافر بالقتل. والدعاء عليه بالقتل المراد به اللعن، لأن ذلك طرد، وإبعاد له عن رحمة الله.

وقوله : [مَآ أَكْفَرَهُۥ] تحتمل (ما) معنيين :

أن تكون تعجبية: أي ما أشد كفره، فالله خلقه، ورزقه، وأعده، وأمده، ثم يكفر به! أو تكون استفهامية: يعني أي شيء أكفره؟ لماذا كفر؟ وكأنها تعجبية أوقع .

[مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾]: هذا الاستفهام للتقرير؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعلم، والمراد ما أصل خلقه؟

.

[مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾]: والمراد هنا: من سِوى آدم عليه السلام، لأن آدم عليه السلام خلق من قبضة من تراب، والمراد بالنطفة: هو نطف المني ودفقته. هذا أصل خلق كل إنسان، سوى الأبوين؛ آدم وحواء ، ما يقذفه الرجل في رحم الأنثى، يكون منتن الريح، يستحي من ذكره. وقد جاء العلم الحديث ليبين أن حال الإنسان أحقر حتى مما كان يدرك من مجرد الصورة الظاهرة للنطفة؛ فالإنسان يخلق من خلية لا ترى إلا بالمجاهر الدقيقة، فهذه النطفة، أو الدفقة تحتوي على ملايين الحيوانات المنوية. فتأمل بداية خلق الإنسان! فما الذي يجعله يشمخ بأنفه، ويستنكف عن عبادة ربه؟

[فَقَدَّرَهُۥ] بعد أن خلقه، أمده، وأعده، أعطاه الآلات، والأدوات التي يقدر فيها على الفعل، والكسب والحرث، والضرب في الأرض .

[ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾]: قيل في معنى [ٱلسَّبِيلَ] قولان:

إما أن المراد بالسبيل: طريق خروجه من بطن أمه. وإلى هذا ذهب ابن عباس رضي الله عنهما[1]. وهو أمر مدهش! فهذا الجنين الذي احتواه الرحم تسعة أشهر، يسهل الله تعالى مخرجه من هذه المخارج الضيقة! ويجري من التغيرات العضوية على الرحم، ومخرج الولد، ما يجعله يتسع، ليخرج منه هذا الكائن.

وقيل: المراد بالسبيل: طريق الحق أو الباطل. ومعنى [يَسَّرَهُۥ] أي مهد له ذلك السبيل، وبين له الخير من الشر، كما قال في الآية الأخرى: [فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ]{الليل:٧} وقال [فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾] {الليل:١٠} وقال [إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾] {الإنسان:٣} . فهذه الآيات تؤيد المعنى الثاني، وإلى هذا ذهب مجاهد، رحمه الله[2]، ويشهد له قول الله ﷻ: [وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾]

---

[1] تفسير الطبري (٢٤/١١١).

[2] تفسير الطبري (٢٤/١١٢).

{البلد:١٠} يعني الطريقين؛ طريق الخير، وطريق الشر. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ لأنه لا تعارض بينهما.

[ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾]: يعني بعد أن طوى هذا العمر، سالكاً طريق الخير، أو الشر، أماته، لأن الله تعالى قضى بالموت على كل حي، حتى ملك الموت يموت ، فلا يبقى إلا الله الواحد القهار. والموت أمر وجودي، كما قال الله تعالى: [ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ] {الملك:٢} فالموت إذاً أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى [فَأَقۡبَرَهُۥ] أي أمر بدفنه؛ وفي اللغة يقال " قابر " ويقال " مُقبر " فالقابر هو الذي يباشر الدفن، والمُقبر هو الذي يأمر بالدفن[1]. فهنا قال: [فَأَقۡبَرَهُۥ]، ولم يقل " فقبره ". والدفن سنة كونية، ولهذا لما قتل ابن آدم الأول أخاه [فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِى ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِى سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوۡءَةَ أَخِىۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾] {المائدة:٣١}، فلم يزل بنو آدم يقبرون موتاهم، إلا من طمس الله ﷻ فطرته ، من الذين يحرقون الموتى، لكنهم بعد إحراقهم للموتى يدفنون رمادهم .

[ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾]: أي بعثه وأحياه بعد موته. وقوله [إِذَا شَآءَ] ليس المراد أنه قد يشاء أن ينشره، وقد لا يشاء ذلك؛ لأنه لابد من البعث، وإنما المراد زمن بعثه، يعني إذا شاء أن ينشره أنشره في الوقت المعين.

ولو تأملنا في هذه الآيات، لوجدنا أن العطف يقع تارة (بثم) وتارة (بالفاء) فمن الناحية البلاغية، سنجد أن العطف جاء (بالفاء) فيما يقصد به التعقيب المباشر ، و(بثم) فيما يفصله عما قبله تراخي ، قال [مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ] أعطاه الآلات التي يقدر فيها على قضاء مصالحه، بعد ذلك قال: [ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾] لأنه جرى بعد ذلك فاصل، سواء على القول الأول؛ أنه خروجه من رحم أمه؛ لأنه أخذ يترقى في الخلق من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى أن كسا العظام لحماً ، فأتى (بثم) لوجود فاصل زمني، أو على القول الثاني؛ أنه الخير، والشر، بأن يمضي عليه سنوات حتى يصبح مكلفاً، فهذا

[1] انظر: تاج، العروس لسان العرب ، الصحاح (مادة: ق–ب–ر).

فاصل زمني يناسب أن يأتي بعده (بثم). ثم قال [ثُمَّ أَمَاتَهُۥ] ، لأنه قد عاش ردحاً من الزمن، فناسب أن يأتي (بثم) التي تدل على تراخ وفاصل طويل، ثم قال: [فَأَقْبَرَهُۥ] أتى (بالفاء) لأن الفاصل بين الموت والدفن فاصل قصير. ثم قال: [ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ] أتى (بثم) لأن بين موت الإنسان وبعثه زمن طويل . فتأمل!

[كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ]: أي ليس الأمر كما يظن ذلك الكافر المنكر للبعث، أنه أدى ما عليه، وغير ذلك، كلا! فإنه لم يؤدي حق الله الذي افترضه عليه .

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: وصف القرءان بالتذكرة.

الفائدة الثانية: إثبات مشيئة العباد، وأفعالهم [فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾] ، وفي هذا رد على الجبرية الذين يسلبون العبد مشيئته، وفعله. فالعبد له مشيئة حقيقية، لكن مشيئته داخلة تحت مشيئة الله [لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾] {التكوير:٢٨-٢٩}.

الفائدة الثالثة: كرامة كلام الله، وكرامة محله، وحملته.

الفائدة الرابعة: أن القرآن كلام الله، ليس كلام الملائكة، لقوله [سَفَرَةٍ] فوصفهم بالسفارة فمهمتهم النقل فقط. ففيه الرد على المعتزلة الذين قالوا إن القرآن كلام محمد، أو جبريل، وليس كلام الله الصادر منه.

الفائدة الخامسة: إثبات الملائكة، ووصفهم بالكرامة وكثرة البر.

الفائدة السادسة: ذم الكافر الجاحد، والتعجيب من حاله .

الفائدة السابعة: بيان أصل الإنسان المهين.

الفائدة الثامنة: بيان فضل الله على الإنسان قدراً، وشرعاً، أما قدراً فلقوله [مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾]، وأما شرعاً فلقوله [ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾] على القول إن السبيل المراد به طريق الحق والباطل .

[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾]

[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾]: هذه دعوة من الله ﷻ للإنسان، والمراد به هاهنا جنس الإنسان؛ لأن هذا لا يختص بالكافر، وإن كان الخطاب يتوجه بالدرجة الأولى إلى الكافر، المنكر للبعث، لكنه في الواقع يتناول المؤمن ليتعظ، ويتدبر. والإنسان بطبعه يتبلد حسه بالنسبة للأمور المألوفة، فلا يلقي لها بالاً، ولا يعتبر دوماً، ولا يتبصر بما يتكرر عليه ليل نهار، صباح مساء. فالله تعالى يصرف فكر الإنسان إلى أقرب الأشياء إليه، وهو هذا الطعام الذي يتناوله يومياً، ولم تحدثه نفسه أن يفكر في مصدره، وكيف سيق إليه؟

[أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾]: وهذه القراءة هي المشهورة بفتح الهمزة [أَنَّا]، وعلى هذا تكون الجملة بدل اشتمال لقوله [فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾] والمراد بصب الماء كون الله ﷻ أنزل المطر على الأرض غزيراً قوياً، متتابعاً .

[ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾]: و (ثم) ها هنا تفيد التراخي؛ لأن الإنبات لا يحصل مباشرة، بل يقع في جوف الأرض من التكونات العضوية لهذه النباتات ما يستغرق فترة طالت، أو قصرت. ومعنى [شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا] أن الله سبحانه وتعالى فتق وجه الأرض، فأخرج هذا النبات. فتجد النبتة تشق الصعيد، أو تبحث من بين الصخور الصلبة عن شق تخرج منه، حتى إذا قويت واشتد عودها فلقت الصخر، بقدرة الله ﷻ.

[فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾]: أي في هذه الأرض، والحب: اسم جنس لجميع الحبوب، فيشمل البر، والشعير، والذرة، والدخن، وغير ذلك من أنواع الحبوب .

[وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾]: العنب معروف عند من نزل فيهم القرآن، فإن الحب قوتهم، والعنب فاكهتهم .

وأما (القضب) فالتفسير العام لهذه اللفظة أنه كل ما يقضب من النبات، فيجز، فينبت مرة أخرى. ومعنى أنه يقضب من القضب وهو القبض، وجذرهما واحد. وقد اختلفت عبارات المفسرين في معنى القضب، فقيل في معناه: أنها الرطبة يعني أي نبت رطب، وقيل في معناه: العلف، وتحديداً القت، ويلحق به على هذا جميع أنواع البقوليات التي تنبت على وجه الأرض .

[وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾]: الزيتون معروف، وقد ذكره الله في غير ما موضع في كتابه، وهو شجرة كريمة، ويخرج منه زيت مبارك [وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾] {المؤمنون:٢٠} ، والنخل كذلك معروف، وهو الشجرة الرئيسية، والثمرة الأساسية التي يتفكهون بها و يقتاتون منها، ولا ريب أنها من أكرم أنواع الأشجار، بل هي أكرمها، وأعظمها فائدة، ولهذا شبه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة، وألغز أصحابه يوماً، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يَوْمًا لأَصْحَابِهِ "أَخْبِرُونِى عَنْ شَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ". فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَذْكُرُونَ شَجَرًا مِنْ شَجَرِ الْبَوَادِى. قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَأُلْقِىَ فِى نَفْسِى أَوْ رُوعِىَ أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَجَعَلْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهَا فَإِذَا أَسْنَانُ الْقَوْمِ فَأَهَابُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَلَمَّا سَكَتُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "هِىَ النَّخْلَةُ" فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فَقَالَ لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا لَكَانَ أَحَبَّ إِلَىَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا) رواه البخاري ومسلم[1].

والمقصود أن النخل من أكرم الأشجار، وأعظمها بركة. وقد ذكره الله ﷻ، في مواضع كثيرة من كتابه .

[وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾]: الحدائق البساتين ؛ لأنها تحدق بمن كان بداخلها لكثافتها، والتفاف أشجارها. ومعنى [غُلْبًا] أي غلاظاً، وقيل عظيمة، وقيل كراماً، والحق أنه يشمل ذلك كله؛ بمعنى أن هذه الحدائق تحتوي على أشجار ضخمة، عظام، كرام، ولهذا فسرت بأنها النخل الكرام، فمعنى (الغلب) ما يدل على العظمة، والمتانة، والقوة، ونحو ذلك.

[وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾]: (الفاكهة) ما يتفكه به الإنسان من أنواع الثمار، و (الأب) قيل: إنه النبات عموماً، وقيل إنه ما يختص بطعام الحيوان. وكأن هذه اللفظة (أب) مأخوذة من (آب)، فالنبات الذي يحصد،

---

[1] صحيح البخاري(٦١٢٢)، صحيح مسلم (٢٨١١) واللفظ له.

ثم يخرج يقال له (أب) من الأوب، وهو العَود. فيشمل الأعلاف، وما شابهها. فكأنه أراد التقسيم : (الفاكهة) للإنسان ، و (الأب) للحيوان. وأما ما يروى عن أبي بكر الصديق، ﷺ، أنه قال لما سئل عن (الأب): (أي سماء تظلني وأي أرض تقلني أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم)[1]، فهو من حيث السند منقطع، ومن حيث المعنى صحيح؛ فإن الإنسان لا يحل له أن يقول في كتاب الله بمجرد الرأي، بل لابد أن يصدر في ذلك عن أثارة من علم ؛ لأن القول على الله عظيم، وقد كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يُسألون عن الحديث فيحدثون، فإذا سئلوا عن تفسير القرآن أمسكوا، تعظيماً للمقام؛ لأنهم يرون أن هذا قول على الله ﷻ ، وتوقيع عن رب العالمين، فكانوا يتحرجون غاية الحرج، أن يقولوا في كتاب الله مالا يعلمون. فالواجب على الإنسان ألا يخوض فيما لا يعلم .

ويروى عن أنس أن عمر قال على المنبر: [وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا] ثم قال : هذا الفاكهة قد عرفناها فما الاب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر! [2].

وقد يكون هذا مشكلاً، فقد يفهم بعض الناس من هذا الأثر، وهو صحيح، أن الإنسان لا يسأل عما خفي عليه، لكن لا يظهر أن هذا هو مراد عمر، ﷺ، وإنما كره أن يقول فيه بلا بينة، فعد ذلك تكلفاً، أن يستنبط شيئاً بلا جزم ولا يقين. وربما كان هذا اللفظ (الأب) ليس من لغة قريش، فخفي على عمر، ﷺ ؛ فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فبعض ألفاظه ومفرداته، قد لا تكون من لغة قريش، وإنما من لغة بعض أحياء العرب، فخفي على عمر، فنهى نفسه أن يتعجل قولاً بلا جزم ولا بينة، فقال: إن هذا لهو التكلف. ولكن هذا لا يعني أن لا يسأل الإنسان عن معاني ما أنزل الله تعالى على نبيه، لأن النبي ﷺ ما ترك شاذة، ولا فاذة، إلا بينها، كما قال تعالى : [وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ] {النحل:٦٤} ، وقال: [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ] {محمد:٢٤}، وقال: [كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ] {ص:٢٩} ، وقال: [إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] {الزخرف:٣} ، وقال: (

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة (١٧٩/٧)، الدر المنثور (٢٥١/١٥) طبعة مركز هجر بمصر. قال ابن حجر في الفتح (٢٧١/١٣) هذا منقطع بين النخعي والصديق.

[2] مصنف ابن أبي شيبه (١٨٠/٧)، المستدرك للحاكم (٥٥٩/٢) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي بشعب الإيمان (٢٢٨١).

[إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢] {يوسف:٢}، فلابد من تعقل القرآن جميعه، ومعرفة مفرداته، وتراكيبه، ولكن هذا لا يكون بمجرد الرأي المحض، لابد من تفسيره بالمأثور، وقد بين ابن عباس، رضي الله عنهما أن تفسير القرآن على أربعة أضرب:

الوجه الأول: تعرفه العرب من لغتها: مثل معرفة (غَاسِقٍ)، و (وَقَبَ)، و (الرَّقِيمِ)، و (الأب) ونحو ذلك، فهذا يطلب من علوم العربية، وقد كانوا ينشدون الأشعار، ويحفظون الشواهد، التي يفسر بها القرآن، وقد جرى بين ابن عباس، رضي الله عنهما، ونافع بن الأزرق سجال في هذا، وكان ابن عباس يستدل على معنى كل لفظة، ببيت من شعر العرب .

الوجه الثاني: ما لا يعذر أحد بجهالته: وهو المعلوم من الدين بالضرورة. فإذا قال الله تعالى: [أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ] {الأنعام:٧٢}، فليس لقائل أن يقول: المقصود بالصلاة هنا الدعاء. لأن الشرع أتى بمعنى اصطلاحي للصلاة، وأنها عبادة ذات أقوال، وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. هكذا.

الوجه الثالث: ما يعلمه العلماء: وهو الذي يحتاج إلى طلب، ورواية، ودراية؛ كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والخاص والعام.

الوجه الرابع: مالا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فهو كاذب: والمقصود به الكيفيات، وحقائق المغيبات، فهذا لا يمكن أن يعلمه إلا الله. فإذا أخبر سبحانه وتعالى أنه [عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥] فإننا نثبت الاستواء، ونثبت معناه؛ أنه العلو، لكننا لا ندرك كيفيته، فكيفيته لا يعلمها إلا الله. الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وإذا أخبر الله تعالى، عما يقع في اليوم الآخر؛ من النفخ في الصور، والبعث، والنشور، والحشر، والصراط، والميزان، فإننا نعلم هذه المعاني من حيث اللغة ، لكن لا ندرك الكيفيات، فهذا مما استأثر به الله تعالى بعلمه، أي بعلم كيفيته .

[مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢]: [مَّتَٰعًا] أي منفعة مؤقتة؛ لأن المتاع يدل على النفع، ويدل على الاستمتاع. والاستمتاع لابد أن يكون موقوتاً. فهذه المذكورات فيها منفعة لكم، وفيها منفعة لأنعامكم. ثم لاحظ أن هذه الأنعام تحيل ذلك إلى طعام؛ فيؤخذ منها اللبن، ويؤخذ منها الزبد، والسمن، واللحم. إذاً هي أيضاً تعود إلى الطعام، فتدخل في عموم قوله [فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤] .

فهذه الجولة في هذه المكونات الغذائية، التي ينبتها الله تعالى على وجه الأرض، ويتناولها الناس، تجعل الإنسان في موقف المتدبر لطعامه، من حين أنزل الله المطر من السماء، إلى أن وصلت إلى فيه. هذه المراحل تستدعي منه النظر، والاعتبار، والتفكر.

[فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾] [ٱلصَّآخَّةُ] اسم من أسماء الساعة. وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان لشدة صوتها، فهي صيحة مرعبة، مدوية.

[يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾]: هذا وصف لتفاصيل القيامة، وهو مشهد مرعب، مفزع، يهرب المرء من أقرب الناس إليه، ممن يتمنى أن يفديهم في دنياه، وأن يدفع عنهم الأذى، ويتمنى أن يصيبه دونهم ، فيوم القيامة، يفر منهم، وينفض يديه منهم، لا أحد ينعطف على أحد، ولا أحد يلتفت إلى أحد. حتى أخيه الذي درج معه في مراتع الصبا، لا يباليه يوم القيامة، ولا يلتفت إليه .

[وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾]: سببا وجوده في هذه الحياة، أحن الناس عليه، وأشفقهم به، يفر منهم. يسألانه حسنة واحدة، فلا يبذلها لهما، يقول نفسي! نفسي! النجاء! النجاء!

[وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾]: الصاحبة: هي الزوجة، ألصق الناس به، والتي جعل الله بينه وبينها، في هذه الدنيا مودة، ورحمة وسكنا، يوم القيامة، يفر منها، وإبنه فلذة كبده، وبضعة منه، يفر منه يوم القيامة . لا ريب أن هذا يدل على هول المطلع، وعظم الموقف، وأن الإنسان ما كان ليبدر منه هذا التنصل من أقرب الناس إليه، إلا لشدة الحال. ولو تأملت في حياتك الدنيا، لوجدت أنك لو رأيت بعض هؤلاء الأحبة يغرق لألقيت نفسك عليه، لتستنقذه، وربما تهلك معه، وإذا وجدته يحترق، ربما ألقيت نفسك عليه، وإذا فقدته لحقك حزن عظيم، وهم، واكتئاب. لكن تأمل ! يوم القيامة، لا مكان لهذه المشاعر، لأن المرء يدرك أن أمامه مصير مستديم، وهول عظيم، يريد أن ينجو بنفسه، يريد أن ينقذ ذاته، لا يلوي على أحد .

[لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾]: يعني يغنيه عن النظر إلى غيره

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

[وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾]: في ذلك الموقف العصيب يتمايز الناس؛ فمن خافه في الدنيا، أمنه في الآخرة، ومن أمنه في الدنيا، أخافه في الآخرة. وإنما عبر الله تعالى عن الذوات بالوجوه، لأن الوجه هو مرآة الإنسان، بل هو مرآة القلب فتظهر انفعالات القلب على الوجه، فالوجه صفحة ظاهرة، تنبيء خبيئة باطنة. ومعنى[مُّسْفِرَةٌ] مضيئة مستنيرة، ووصف الوجوه بأنها [ضَاحِكَةٌ] لأن الضحك يرى في الوجه، والضحك يكون من فرح، ومن أنس، ومن موعود حسن، ومعنى [مُّسْتَبْشِرَةٌ]: أي فرحة، متفائلة، لما تنتظر ما عند الله ﷻمن النعيم، والفضل. جعلنا الله وإياكم منهم .

[وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾]: كالحةٌ مظلمةٌ .

[تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾]: أي سواد، وظلمة، كما قال الله في الآية الأخرى: [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ] {آل عمران:١٠٦} .

[أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾]: جمعوا بين فسادين؛ بين فساد القلب، وفساد العمل، فساد القلب دل عليه وصفها بالكفر، وفساد العمل دل عليه وصفها بالفجور.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: فضيلة التفكر في نعم الله وآلائه، والدعوة إلى ذلك.

الفائدة الثانية: بديع صنع الله في النفس، والآفاق.

الفائدة الثالثة: كرم هذه الثمرات المذكورات، والنباتات، لأن الله تعالى ما خصها بالذكر إلا لمزيد مزيتها.

الفائدة الرابعة: وجوب شكر المنعم وعبادته ؛ لأنه قال [مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ] .

الفائدة الخامسة: عظم أمر الساعة، وهول أحوال يوم القيامة.

الفائدة السادسة: تبرؤ الإنسان من أقرب الناس إليه يوم القيامة.

الفائدة السابعة: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الثامنة: أن الكفر كفران؛ كفر اعتقادي، وكفر عملي [أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾]، لأن الموصوف.

سورة التكوير

هذه السورة العظيمة تهدف إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تقرير عقيدة اليوم الآخر .

الأمر الثاني: تقرير أن القرآن كلام الله .

الأمر الثالث: تقرير المسؤولية البشرية .

يسمي العلماء هذه السورة (سورة التكوير) ، وقد سماها النبي ﷺ، بأول جملة فيها (إذا الشمس كورت)، فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي قال ﷺ " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ]، و[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ]، و[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ]"رواه الترمذي[1].

وهذه السور الثلاث متشابهة في مقاصدها، وفي نظمها .

[إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾]

[إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾]: استهلّ الله سبحانه وتعالى هذه السورة بأداة الشـرط (إذا)، واتبعها بعدة جمل للوصول إلى جواب الشرط. وقد لفت الله تعالى انتباه المخاطبين، من المشركين، الذين يعانون من بلادة التفكير، وعدم الاعتبار بالآيات الكونية، إلى آية باهرة، يرونها كل يوم؛ وهي الشمس التي تطلع عليهم كل صباح، وتغيب عنهم كل مساء. لقد بات هذا المشهد العظيم في حس كثير من الناس منظراً مألوفاً، ولكن الله سبحانه وتعالى يبين أن هذه الصورة المتكررة، وهذا المنظر المألوف، لن يدوم، وأنه سيأتي عليه وقت يختلف عما هو عليه! ولا ريب أن هذا من دواعي هز النفس من أركانها؛ أن يقال إن هذه الشمس، التي تراها صبيحة كل يوم، يطلع قرنها من جهة المشرق، ثم تراها عشية كل يوم، يسقط قرنها في جهة المغرب، أنها في يوم من الأيام تكور! فقال: [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ

---

[1] سنن الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد في المسند (٤٨٠٦) وصححه الألباني .

]: لهذه اللفظة أربعة معاني عند المفسرين: فمنهم من قال: [كُوِّرَتْ] ذهبت، وزالت. فهذه الشمس المرئية التي لا تخطئها العين، والتي يحال عليها في تحقيق الخبر، فيقول الناس : " كالشمس في رابعة النهار "، وكما في الأثر (على مثلها فآشهد أودع)[1]، تذهب. وقيل في معنى [كُوِّرَتْ] أي ذهب ضوئها، وأظلمت، بعد أن كانت نيرة مشعة. وقيل: رميت، وألقيت. وقيل: جمعت، ولفت، كما تلف العمامة.

وهذه المعاني الأربعة لا تعارض بينها؛ وذلك أن الشمس مخلوق عظيم، يعتريها يوم القيامة من الحوادث أحوال عديدة، فيبتدئ الحال بأن تجمع هذه الشمس بعضها على بعض، وتلف، وبعد لفها يذهب ضوئها، وينقبض، وينحسر، ثم بعد ذلك، يذهب بها، فتزال عن موضعها، ثم يرمى بها، فيكون مستقرها أن تلقى في النار، إذ أنها من طبيعة النار؛ فإن الشمس، كما هو معروف عند علماء الفلك، جسم ناري، ملتهب، حتى إن الفلكيين يقولون إنه يجري على سطح الشمس من الانفجارات الهائلة، ما يعادل ملايين الانفجارات النووية. فهي جسم ملتهب، متقد، ولذلك يصلنا القدر الذي يكفينا من ضوئها، ودفئها. وبهذا تجتمع المعاني الأربعة للفظ التكوير، دون تعارض.

هذا هو المشهد الأول، ولا شك أن تحول المناظر المألوفة، مما يبعث على الفزع، فإن الشيء المستقر الراتب إذا تغير يبعث على الفزع، ويحرك القلوب الراكدة.

[وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾]: النجوم هي تلك النقاط التي نراها في قبة السماء، ليلاً، تبعث الضوء، وتبدو لنا صغيرة، وإن كان أهل الفلك يقولون إنها شموس كبيرة، جبارة، ولكن لبعد مسافاتها، التي تقاس بالسنين الضوئية، تبدو لنا كالنقط. وللمفسرين في معنى [ٱنكَدَرَتْ] أقوال: فمنهم من قال: إن معنى [ٱنكَدَرَتْ] تناثرت، وتساقطت، وتهافتت، شذر مذر، وهذا أيضاً أمر يدعو للفزع؛ فإن الإنسان إذا رأى الشهب، والنيازك، تتقاذف في السماء أصابه روع، ولو وقع شيء منها على الأرض، أحرقه، أوترك فيها أثراً، وحفراً، يجده الناس في أحيانًا الصحاري، فكيف إذا كانت هذه النجوم،

---

[1] حلية الأولياء (١٨/٤) والحاكم في المستدرك (٧٠٤٥)، البيهقي في شعب الإيمان (١٠٩٧٤)، وإسناده ضعيف، قال الحافظ ابن حجر في البلوغ: (٢٩٠/١) صححه الحاكم فأخطأ.

التي تعد بالملايين، يجري لها هذا الأمر ؟! ويشهد لهذا المعنى قول الله تعالى في السورة التالية: [إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾] {الانفطار:١-٢} فهذا من الانتشار. وقيل في معنى [ٱنكَدَرَتْ]: تغير لونها ، فإن الكدرة هي تغير اللون، بحيث يخبو البريق، ويذهب الوهج. وهذا أيضاً حاصل؛ فإنها تسلب لمعانها، وبريقها الذي هي عليه في الدنيا. إذاً هذا مظهر آخر من مظاهر القيامة.

[وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾]: هذه الجبال الرواسي، الشامخات، التي يضرب بها المثل في الثبات، تزول عن أماكنها، ويسيِّرها الله ﷻ، كما قال في الآية الأخرى: [وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ] {النمل:٨٨}. وهذا هو أحد أحوال الجبال يوم القيامة، وهو حال التسيير؛ بأن تزول من أماكنها، التي كانت قد ثبتت، وأرسيت فيها، فتسير سيراً عجيباً. ثم يتلو هذا التسيير مرحلة النسف، كما قال الله تعالى: [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا] {طه:١٠٥} . ويتلو هذا الحال مرحلة البس، والدق، حتى تعود هباءً منبثاً، كما قال الله ﷻ: [وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾]{الواقعة:٥-٦}. فينبغي أن تجمع الآيات في القضية الواحدة، ليكتمل فهمها ، فلا يقال إن هذا يعارض هذا ، بل يقال: إن يوم القيامة يوم طويل، تحصل فيه هذه الأحداث المتنوعة، وتتوالى.

[وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾]: الناقة العُشراء، أي التي بلغت الشهر العاشر في حملها، وصارت على وشك الوضع. والنوق كانت، ولا تزال، أنفس أموال العرب، فكيف إذا كانت هذه النوق على وشك الولادة! لا شك أن ثمنها يعلو؛ لأن الذي يملكها يطمع في النتاج. ومعنى [عُطِّلَتْ]: أهملت، وتركت بلا راعٍ يرعاها، ولا موالٍ يواليها. دفع إلى ذلك هول الموقف .

[وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾]: الوحش هو الحيوان غير المستأنس، الذي يعيش في الفلوات. قيل في معنى[حُشِرَتْ]: ماتت، وقيل، وهو الأقرب، أي جمعت؛ لأن الحشر هو الجمع الذي يصاحبه ضيق، واكتظاظ، كما قال الله ﷻ: [هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ] {الحشر:٢} ، فهذه الوحوش التي عاشت على وجه الأرض، مما نرى، ومما لا نرى، ومما انقرض،

كلها يوم القيامة تحشر، وتجمع. ويمكن الجمع بين القولين بأن تجمع أولاً، ثم تموت، بعد ذلك؛ فإنه يقال لها: كوني تراباً .

[وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾]: البحار تشمل ما نسميه الآن البحار، والمحيطات، والأنهار، فإن هذا كله يشمله اسم البحر، قال الله تعالى: [۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾] {الفرقان:٥٣}، فالبحر يطلق على مجتمع الماء الكثير. وقد وردت قراءة بالتشديد، يعني بالتضعيف [سُجِّرت]، ووردت بالتخفيف[سُجِرَت]. والتسجير له عدة معاني ، فقيل إن معنى [سجرت] أي أوقدت، وأشعلت ، وقيل : امتلأت، وفاضت ، وقيل: يبست .

وكما قلنا في الجبال، وفي الشمس، نقول أيضاً في البحار: إن هذه البحار يعتريها أحوال يوم القيامة، فلعل أول ما يعتريها أنها تفجر، كما في السورة التالية: [وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾] {الانفطار:٣} أي فاضت، وامتلأت، فاختلط الماء العذب، بالماء الحلو، وفاضت عن حدها، ووعائها الذي كان يحفظها، فإن الله سبحانه وتعالى قال : [وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾] {الفرقان:٥٣} فهذا البرزخ يكسر يوم القيامة، ويقع امتلاء وفيضان. ثم يقع بعد ذلك التسجير، بمعنى الإيقاد، والإشعال، كما قال في السورة الأخرى: [وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ] {الطور:٦} يعني: الموقد المضطرم ناراً، فيجري إيقاد، وينشأ عن هذا الإيقاد أن يتبخر هذا الماء، فتيبس البحار. فتكون هذه المعاني محمولةً على أحوال مختلفة، فلا يكون هذا من باب التعارض والتناقض، وإنما من باب التنوع.

هذه الأمور الستة، روي عن أبي ابن كعب، ﷺ[1] ، أنها تقع يوم القيامة، قبل البعث، مقارنة لنفخة الصعق، وأما ما بعدها، مما سيأتي، فيقع بعد البعث. وإذا أطلق (يوم القيامة) فقد يراد به ما يصاحب نفخة الصعق، وقد يراد به ما يتلو نفخة البعث؛ لأن النفخ نفختان، كما قال الله ﷻ :[وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾] {الزمر:٦٨}، نفخة للصعق، ونفخة للبعث. وأضاف بعض العلماء نفخة ثالثة، وهي نفخة الفزع ! لكن الذي تدل ظاهر عليه الأدلة أنها نفختان.

---

[1] تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٩/١٢).

[وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾]: هذا يكون بعد البعث. ومعنى [زُوِّجَتْ] أي: قرنت النفوس بالأبدان التي كانت تعمرها في الدنيا. وقيل: أي قرن الأشباه، والنظائر، بعضها ببعض؛ فاليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، كما قال الله تعالى: [۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ] {الصافات:٢٢} يعني أشكالهم وأشباههم ، فيكون معنى [زُوِّجَتْ] يعني قرنت بأشباهها، وأشكالها. ولعل هذا المعنى أرجح؛ وذلك أن الله، ﷻ، كثيراً ما يذكر التصنيف، كما في قوله: [فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ] {الشورى:٧}، وقال [فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ]، فهذا التصنيف، والقرن، هو التزويج المراد بقوله: [وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ].

[وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾] الموؤدة: البنت التي يقتلها أبوها في صغرها، إما خشية العار، وإما خشية الحاجة، أو خشية الأمرين معاً. فقد كان أهل الجاهلية، والعياذ بالله، يئدون البنات، قال تعالى: [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ] {النحل:٥٨-٥٩}، روى الإمام الدارمي رحمه الله في مطلع سننه أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ، ﷺ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهَّ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ ، فَكُنَّا نَقْتُلُ الأَوْلاَدَ ، وَكَانَتْ عِنْدِى بِنْتٌ لِى ، فَلَمَّا أَجَابَتْ عِبَادَةَ الأَوْثَانِ ، وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِى إِذَا دَعَوْتُهَا ، فَدَعَوْتُهَا يَوْماً فَاتَّبَعَتْنِى ، فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِئْراً مِنْ أَهْلِى غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بِهَا فِى الْبِئْرِ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِى بِهَا أَنْ تَقُولَ : يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ. فَبَكَى رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- حَتَّى وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللهَّ -ﷺ- : أَحْزَنْتَ رَسُولَ اللهَّ. فَقَالَ لَهُ :« كُفَّ ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ ». ثُمَّ قَالَ لَهُ :« أَعِدْ عَلَىَّ حَدِيثَكَ ». فَأَعَادَهُ ، فَبَكَى حَتَّى وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :« إِنَّ اللهَّ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا، فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ »الدارمي [1].

كان هذا حالهم، والعياذ بالله، يئدون البنات؛ لأنهم يخشون العار؛ لما يقع بينهم من الغزو، والسلب، والنهب، فيخشون أن تؤسر، فتقع في يد عدوه، فيكون عاراً عليه، أو يفعلون ذلك بسبب الفقر، أو

[1] سنن الدارمي (٢) قال محققه، حسين اسد: مرسل وتفرد بروايته الدارمي.

الخوف منه. ولهذا نهاهم الله ﷻ: [وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ] {الإسراء:٣١}، [وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ] {الأنعام:١٥١} .

[بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾]: هذا السؤال من الله ﷻ في ذلك اليوم، ما أثقله، وما أعظمه على ذلك الوائد ! وماذا يكون جواب هذه الموءودة ؟ وقد جاء في قراءة [بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلْتِ] على سبيل الخطاب. ولا شك أنه لا ذنب لها، وإنما الذنب يتحمله هذا الوائد، القاطع. وهذا مما أكرم الله تعالى به المرأة في هذه الشريعة العظيمة، أن حفظها من هذا الهوان وهذا القتل .

[وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾]: المراد بالصحف: صحائف الأعمال، التي يقيد بها الكرام الكاتبون ما يخرج من الإنسان من خير، أو شر. ومعنى [نُشِرَتْ]: أي فتحت، وأبرزت، فلا خفاء، ولا سر، بل عدل ظاهر، وحق بين. وهذا من كمال عدل الله ﷻ ، واعتبار الشارع بالتوثيق، فكل إنسان يقيد عليه ما طار منه من عمل، كما قال الله ﷻ: [وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾] {الإسراء:١٣} يعني ما طار منه من عمل، لأن ما يبدر منك من فعل، أو قول، كالطائر الذي فر منك، لا سبيل إلى رده، فلذلك سمي طائراً، ومعنى [مَنشُورًا]: أي مفتوحاً ،كما ها هنا .

[وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾]: هذا مظهر عجيب! هذه السماء التي يُسَـرِّح الإنسان فيها طرفه، ويرسله في أرجائها، ويبحث عن موضع ثقب، ولو كثقب الإبرة، فلا يجده ! كما قال الله تعالى: [فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾] {الملك:٣-٤}، فهي سماء محكمة، مصمتة، لا يوجد فيها أدنى خلل، في يوم القيامة تكشط، أي: تسلخ كما يسلخ الجلد من الذبيحة، حين يضع الجزار عليها قدمه، أو فيها يده، ويكشط الجلد! قال الله تعالى في الآية الأخرى: [يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ] {الأنبياء:١٠٤} السجل: هو ما تحفظ فيه الكتب، والمواثيق، يدار، فتدرج فيه الورقة. فهذه السماء تطوى طياً، وعبر هاهنا بالكشط وهو الإزالة . ومن

شواهد ذلك، أن الله تعالى عبر بالتشقق، حيث قال: [وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ] {الفرقان:٢٥} فكل سماء تنفرج وتنشق عن السماء التي فوقها.

ولا ريب أن هذه الأمور أمور غيبية، نفهم منها المعنى العام، المشترك، الذي دلت عليه اللغة، لكننا لا نحيط بالكيفية. فما دل عليه القرآن من أحوال يوم القيامة، ومن صفات الرب ﷻ، فهو حق على حقيقته فلا هو كلام أعجمي غير مفهوم، ولا هو حكاية كيفية تتخيلها الأذهان، بل هو إدراك للمعنى، دون إدراك للكيفية. فنحن إذا قرأنا هذه الآيات المتعلقة باليوم الآخر، أو الآيات المتعلقة بصفات الرب ﷻ ، ندرك منها بمقتضى الوضع العربي معاني معينة، لكننا لا ندرك الحقائق، والكنه، والكيفيات، ولا شك أن إدراكنا للمعاني كافٍ في حصول الموعظة، والعبرة، والتأثير.

[وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾] الجحيم: اسم من أسماء النار، وهي تدل على الجهامة، والظلمة، فهي سوداء، مظلمة، يحطم بعضها بعضاً. ومعنى قوله : [سُعِّرَتْ] أي: زيد في إيقادها، وتسعيرها، وإلا فإنها مخلوقة، موجودة، وهذا هو الذي دلت عليه النصوص، لكنها يوم القيامة تَهيُئ لأضيافها، وبئس الأضياف، وبئس النزل .

[وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾]: روي عن بعض السلف أن الآيتين [وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾] ، هما مجرى الخطاب، يعني أن كل ما سبق، ذكر للوصول إلى هذا الأمر، أي إلى جحيم تسعر، أو جنة تزلف. ومعنى (أزلفت): أي: قربت، وأدنيت. ولهذا كان من شأن الجنة، أنها تفتح أبوابها تلقائياً، وأن النار، والعياذ بالله، تفتح فجأة، كما ذكر الله ذلك في آخر سورة الزمر [وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا] {الزمر:٧١} وفي هذا صدمة وهول، بينما قال في الجنة: [وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا] {الزمر:٧٣} كأنما هناك تهيؤٌ، واستقبال، وحفاوة مسبقة. نسأل الله من واسع فضله .

[عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾]: هذا جواب الشرط، ذكر بعد ثلاثة عشر جملة من قوله : ([إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾] إلى قوله : ([وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ]، و[نَفْسٌ]: اسم جنس، يعني نفس من النفوس، كما قال الله

تعالى: [يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا] {آل عمران:٣٠}. ولا ريب أن من مرت به هذه المواقف المقارنة لقيام الساعة، والمواقف والأحوال التي تتلو البعث، يدرك يقيناً ما هو عليه. وهذا الشوط من الآيات شوط مهول، شوط يهز القلب من أركانه، وترتجف له النفوس الحية. وتأمل وقع هذه الآيات على قوم ينكرون البعث ! فإذا كان المؤمن الذي علم مسبقاً بهذا الأمر، وتلا السورة، وأمثالها، مراراً، يتأثر قلبه لتكرارها، فما بالك بهذا الذي قد أعفى نفسه من التفكير في هذه الأمور، وقيل له سيقع كذا وكذا. فسيجعله ذلك أمام مفترق طرق، فإما أن يتبع هذا النبي الذي جاء بهذا الحق، وإما أن يختار الأخرى. وهذه مجازفة، ومغامرة .

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: بيان هول يوم القيامة.

الفائدة الثانية: بيان عظيم قدرة الله تعالى؛ فهذا الكون المنتظم، الرتيب، بأفلاكه العلوية، ومخلوقاته السفلية، يُخلفه الله ﷻ، ويغير نمطه.

الفائدة الثالثة: شناعة جريمة الوأد، فقد خصها الله بالذكر في هذا السياق المليء بالآيات الكونية، والأحداث الكبرى.

الفائدة الرابعة: بيان كمال عدل الله .

الفائدة الخامسة: إثبات الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان .

الفائدة السادسة: إقرار المرء بعمله يوم القيامة .

[فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩]

[فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ]: [فَلَآ أُقۡسِمُ] هذا التعبير كثير في كتاب الله ﷻ، كقول الله تعالى: [لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١] {القيامة:١} [لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١] {البلد:١}، وقد اختلف المفسرون في توجيهه ، فقال بعضهم إن [لَآ] زائدة ، والمراد : [أُقۡسِمُ]، وإنما نفى القسم، لكون الأمر من الوضوح والبيان بمكان لا يحتاج فيها إلى القسم. وهذا أبلغ. وقال بعضهم: إن معنى قوله [لَآ أُقۡسِمُ] أو[فَلَآ أُقۡسِمُ] على تقدير محذوف، أي: ليس الأمر كما تظنون، [أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ]، ولا الأمر كما تظنون [لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١] {القيامة:١}. فالمنفي هو ذلك الباطل الذي يعتقدون. وبعضهم قال إن [لَآ]زائدة لفظاً لا معنىً ؛ يعني أنه لا يراد بها حقيقة النفي، وإنما يراد بها التأكيد .

واختلف العلماء في المراد [بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ]على ثلاثة أقوال: فقيل: المراد بها النجوم السيارة، وقيل الكواكب المعروفة،وقيل: الظباء، أو بقر الوحش. ومعنى(الخنس) التي تغيب وتطلع. ومعنى[ٱلۡجَوَارِ] النجوم التي تجري في فلكها، أو الظباء في فلاواتها. ومعنى[ٱلۡكُنَّسِ]: المكان الذي تختفي فيه الظباء والوحوش، أي المكانس، وهي الحُجَر التي تأوي إليها. وأرجح هذه الأقوال الثلاثة النجوم، وإن كان ابن جرير، رحمه الله، رجح بأن المراد كل ما يخنس، ويجري، ويدخل في كناسه[1]، وأن كل ذلك يصلح محلاً للقسم. لكن يؤيد كونها النجوم أن النجوم أبين، وأظهر؛ يراها الناس جميعاً، وتؤيدها آية الواقعة [۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥] {الواقعة:٧٥} .

[إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩]: [إِنَّهُۥ] أي القرآن، [رَسُولٖ كَرِيمٖ] المراد به جبريل عليه السلام. وهذا لا يعني أن القرآن من كلام جبريل، وإنما المراد أنه مبلغ عن مرسله، فوظيفته في هذا الأمر النقل، والتبليغ. ولهذا عرفه

[1] تفسير الطبري (١٥٨/٢٤).

بأنه رسول فالقرآن كلام الله، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً ومؤدياً، فلهذا أضافه الله إلى نفسه فقال: [حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ] {التوبة:٦}.

وقد قال في آية الحاقة [إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠] {الحاقة:٤٠} وأراد به محمد ﷺ فدل أن إضافة القول إلى جبريل عليه السلام تارة وإلى محمد ﷺ تارة إضافة تبليغ فقط إذا لايمكن أن يكون لا يمكن أن يكون كلام كل واحدٍ منهما.

[ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠]: [ذِي ٱلۡعَرۡشِ] هو الله سبحانه وتعالى، [مَكِينٖ] يعني: ذي مكانة، ومنزلة.

[مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١] [مُّطَاعٖ] يعني أن جبريل، عليه السلام تطيعه الملائكة، (ثَمَّ أَمِينٖ) يعني أنه مؤتمن على الوحي. وكل هذا توثيق للرسالة.

[وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢]: المراد بالصاحب محمد ﷺ وإنما نفى عنه الجنون، لأنهم كانوا ينبزونه بذلك فبرأه الله منه.

[وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣]: أي أن النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام، بالأفق المبين، وهو مطلع الشمس، أو مغربها، مكان التقاء الأرض بالسماءو بحسب رأي العين.

[وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤] [بِضَنِينٖ] أي لا يبخل بالوحي، ولا يأخذ عليه أجراً. وفي قراءة أخرى [ظنين] يعني من الظِّنة، أي ليس محلاً للتهمة، والظنة. فليس بمتهم في تبليغ رسالات ربه، وفي هذا أعظم التزكية.

[وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦]: مما برأ الله تعالى به كلامه، أنه ليس بقول شيطان رجيم. فقد كان من مزاعم كفار مكة أن الشياطين هي التي تلقي إلى النبي ﷺ هذا الكلام، وأن له رئي من الجن، يعني صاحب من الجن يلقنه هذه الكلمات، كما يلقن الجن السجع للكهان. فكلام الله بريء من ذلك. وكلمة [شَيۡطَٰنٖ] مشتقة من الشطن، وهو البعد وذلك، لإبعاد الله تعالى له، ومعنى [رَّجِيمٖ]: أي مرجوم، وملعون، ومطرود عن رحمة الله. وفي هذا أيضاً تبرئة، وتوثيق للقرآن العظيم، من أن يكون التبس به شيء، أو خالطه شيء من إلقاء الشياطين. قال تعالى: [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ

وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾] {الحج:٥٢} يعني أن الشياطين تحاول التلبيس على الوحي، والتأثير على النبي، بأن تدخل فيه ما ليس منه. ووجه دلالة الآية ، من قوله : [تَمَنَّىٰٓ] يعني تلا، وليس المراد تمنى من الأماني ، وإنما من الأمنية وهي، التلاوة، كما قال الشاعر :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهَا لَاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وقد روي في سبب نزولها عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة "النجم" فلما بلغ هذا الموضع: [أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾] {النجم:١٩-٢٠} قال: فألقى الشيطان على لسانه: "تلك الغَرَانيق العلى. وإن شفاعتهن ترتجى". قالوا: ما ذكر آلهَتنا بخير قبل اليوم. فسجَدَ وسجدوا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾] {الحج:٥٢} رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير[1]. وقال ابن كثير :(ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم) [2]

وقد صنف فيها الشيخ ناصر الدين الألباني، رحمه الله، رسالة بعنوان " نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق " والمجانيق: جمع منجنيق : هو آلة حربية، يوضع في كفتها ثقل، ويرمى به القلاع، والحصون، فتهدم الأسوار. والرسالة المذكورة، اسم على مسمى، فقد نسف هذه القصة من الناحية الحديثية. و لو قدرنا أن شيئاً مثل هذا قد وقع، بدلالة آية الحج [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ] وأدخل الشيطان في الآيات ما ليس منها، فإن الله سبحانه وتعالى يبطل هذا الدخيل، ويبقي كلامه الأصيل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يبق محذور .

---

[1] تفسير الطبري (٦٠٧/٢٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٢٥٠٠/٨)، وهو باطل. انظر (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق).

[2] تفسير ابن كثير (٤٤١/٥).

[وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾]: هذا ردٌّ على القدرية الذين ينكرون القدر السابق. ورد على الجبرية الذين ينكرون مشيئة العبد. فقد أثبت الله للعباد مشيئة حقيقية، داخلة تحت مشيئته .

و العبد إذا شاء، والرب لم يشأ، لم تقع مشيئة العبد، لقوله تعالى : [وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾]؛ لكن في نفس الوقت العبد له مشيئة حقيقية ، ليس مضطراً، ولا مكرهاً، ولا مجبوراً، على أفعاله الاختيارية، بل يأتي الأشياء، ويذرها بمحض اختياره، وسبق إصراره. وهذا أمر مدرك؛ كل إنسان يجده من نفسه، ويفرق بين أعماله الاضطرارية، وأعماله الاختيارية، ولا ينازع في هذا إلا مخبول. فأنت تفرق بين أن تنزل من السطح إلى الأرض درجة درجة، وبين أن تتدحرج حتى تصل القاع.

وبهذا كانت هذه السورة العظيمة قد حققت مقاصدها الجليلة

وهذه المقاصد العظيمة أسس الاعتقاد ، ترسخ في عقول المخاطبين، وتقر في قلوبهم، أن يؤمنوا بالبعث وما يجري يوم القيامة، وأن يؤمنوا بهذا القرآن الذي يتلى عليهم، وأنه ليس كلاماً كسائر الكلام، ليس من سجع الكهان، وليس من شعر الشعراء، ولا غير ذلك من كلام البشر، بل هو كلام كريم، من رب العالمين. كما أن الشخص المبلغ له مزية، فهو وإن كان بشراً، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، لكنه يوحى إليه. [قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ] {فصلت:٦}. هذه كلها مفاصل الاعتقاد ، ثم ما يترتب على هذه الجمل الإيمانية، والأصول العقدية، من الأثر البالغ، وهو تعليقهم بمسئوليتهم، التي مكنهم الله تعالى فيها؛ من الأدوات، والآلات، فأثبت لهم مشيئة ، وفعلاً ، وقدرة ، واختياراً ، على أساسه يترتب الثواب، والعقاب. فهذه السورة على قصر آياتها، احتوت على هذه الأصول العقدية العظيمة !

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: بلاغة القرآن، وقوة تأثيره، تأمل قول الله تعالى: [فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾] لا تفي العبارات لتصوير الأثر الذي ينقدح بالنفس، من هذه الجمل الرصينة المؤثرة ، فهذا مظهر لبلاغة القرآن وجزالته، لاسيما القرآن المكي .

الفائدة الثانية: إقسام الله بما شاء من مخلوقاته، فلله ﷻأن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لكن ليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله ﷻ، قال ﷺ "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"رواه ابو داود والترمذي[1].

الفائدة الثالثة: التنبيه على أن مهمة جبريل، عليه السلام، هي البلاغ، أخذاً من قوله: (رسول) .

الفائدة الرابعة: شرف جبريل، عليه السلام، وفضله على سائر الملائكة، حيث وصفه الله بأنه " كريم " وأنه " مطاع " وأنه " أمين " .

الفائدة الخامسة: تبرئة النبي ﷺمما نبزه به المشركون من الجنون .

الفائدة السادسة: وفور عقل النبي ﷺ، فإن نفي الله تعالى عن نبيه الجنون يتضمن إثبات كمال ضده ، فهو وافر العقل، والرأي، والرشد .

الفائدة السابعة: ثبوت اللقيا بين النبي ﷺ، وبين جبريل، عليه السلام، واتصال سنده برب العالمين، لقوله: [وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾].

الفائدة الثامنة: الشهادة الربانية للنبي ﷺبكمال البلاغ، لقوله تعالى: [وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾] على القراءتين .

الفائدة التاسعة: عصمة الوحي من إلقاء الشياطين، وتلبيسهم، لقول الله تعالى: [وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾].

الفائدة العاشرة: عموم دين الإسلام للعالمين، لقوله تعالى: [إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾].

الفائدة الحادية عشرة: كون القرآن ذكراً، يرفع الجهل والغفلة، لقوله: [إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ]

الفائدة الثانية عشرة : إثبات مشيئة العباد وأفعالهم ، لقوله تعالى: [لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ] .

الفائدة الثالثة عشرة: الرد على الجبرية الذين ينكرون مشيئة العباد .

الفائدة الرابعة عشرة: أن التزام الدين استقامة، وتركه اعوجاج ، لقوله تعالى: [لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ]، فالمعيار في الاستقامة: موافقة الشرع، والوحي، والمعيار في الوسطية موافقة الشرع والوحي. وتجد

---

[1] سنن أبي داود (٣٢٥١)، سنن الترمذي (١٥٣٥) صححه الألباني.

بعض الناس يصنف الآخرين على ما يحلو له؛ فيقول: فلان متشدد ، وفلان متساهل ، وفلان متوسط بناءً على معيار غير صحيح، فإذا رأى من يلتزم بالسنن، ويحافظ على هدي النبي ﷺقال عنه: فلان متشدد، سبحان الله ! هذا ليس معياراً صحيحاً ؟ بل هذا انحراف، فالمستقيم حقاً، والمتوسط حقاً، هو من وافق هدي النبي ﷺفإن زاد فهو متشدد ، وإن نقص فهو مفرط .

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات عموم مشيئة الله تعالى، لقوله تعالى: [وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾].

الفائدة السادسة عشرة : الرد على القدرية، فإن غلاة القدرية، ينكرون مراتب القدر الأربع كلها، فيقولون لم يعلم، ولم يكتب، ولم يشأ، ولم يخلق أفعال العباد! ومقتصدوهم، وهم المعتزلة، قالوا: علم، وكتب، لكن لم يشأ، ولم يخلق!

الفائدة السابعة عشرة : أنه لا تنافي بين إثبات المشيئتين ، لأن مشيئة الله محيطة بمشيئة العبد.

الفائدة الثامنة عشرة : كمال عدل الله، وعلمه ؛ لأن إثبات مشيئة الله العامة، تدل على إثبات علمه، لوقوع الأشياء وفق معلومه. وكونه سبحانه أعطى العبد مشيئة، وفعلاً، واختياراً، رتب عليه الثواب، والعقاب، يدل على كمال عدله . والله أعلم .

سورة الانفطار

سورة الانفطار تشابه سورتي التكوير قبلها، و الانشقاق بعدها، وقد ورد فيها حديث: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ]، و[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ]، و[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ])رواه الترمذي[1].

ومن مقاصد هذه السورة:

المقصد الأول: الإيمان باليوم الآخر، وبيان أهوال القيامة.

المقصد الثاني: بيان ربوبية الله، وعظيم منته على الإنسان .

المقصد الثالث: الرد على منكري البعث .

المقصد الرابع: إثبات الحساب والجزاء .

المقصد الخامس: الإيمان بالملائكة .

المقصد السادس: الإيمان بالجنة والنار .

[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾]

[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾]: (إذا) شرطية، ومعنى [ٱنفَطَرَتْ]أي انشقت، وتصدعت، كما قال الله ﷻ: [وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾] [الحاقة: ١٦]، [إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾] {الانشقاق:١}.

[وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾]: [ٱلْكَوَاكِبُ] هي النجوم، ومعنى [ٱنتَثَرَتْ]: أي تساقطت، وتفرقت، يعني كأنها تساقطت متفرقة .

[وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾]: أي امتلأت، وفاضت، وانفتح بعضها على بعض، بأن يطغى الماء، فيدخل ماء البحر على ماء النهر. وقيل في معنى [فُجِّرَتْ] ما تقدم من المعاني في سورة التكوير؛ أنها

[1] سنن الترمذي (٣٣٣٣)، مسند أحمد (٤٨٠٦) وصححه الألباني.

بمعنى (سجرت) أي تسجر، وتشتعل، فيكون هذا بمنزلة التفجير. ويقول بعض المعاصرين، إنه يمكن أن يكون هذا التفجير يرجع إلى الطبيعة الذرية لمكونات الماء ، فالماء عند أهل الفيزياء مكون من ذرتي هيدروجين،وذرة أكسجين، وأنه يقع اختلال في النظام النووي لهذا التكوين، فيقع انفجارات هائلة بسبب ذلك، كانفجار القنابل الذرية، والله أعلم.

[وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾]: [ٱلْقُبُورُ] هي مدافن الموتى، ومعنى [بُعْثِرَتْ] أي نبشت، وقلبت، وأثيرت، وبعث من فيها .

[عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾]: [نَفْسٌ] يعني كل نفس ، [مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ] اختلف المفسرون في التقديم والتأخير، مع اتفاقهم على أن ذلك متعلق بالعمل. فذهب بعضهم إلى أن المقصود بقوله [مَّا قَدَّمَتْ] أي من عمل صالح، وبقوله [وَأَخَّرَتْ] أي من عمل صالح بعد موتها، كقول النبي ﷺ: "إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"رواه مسلم[1] . يعني ما قدمت من عمل صالح، أو أخرته، وأجرته بعد موتها، كالأوقاف، والوصايا، وما أشبه. وقال بعضهم: [مَّا قَدَّمَتْ] يعني ما أدت من الواجبات، والفرائض، [وَأَخَّرَتْ] ما تركت، وأهملت من الواجبات، والفرائض، وذهب فريق ثالث إلى العموم، وأن المراد ما قدمت من خير أو شر، وأخرت من خير أو شر، وعلى كل حال، فالآية تدل على علم الإنسان يقيناً يوم القيامة بحصيلة عمله من خير أو شر. والعموم أولى بالأخذ، لقول الله تعالى: [يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا] {آل عمران:٣٠}، وقوله: [فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾] {الزلزلة:٧-٨}). وجواب الشرط: قوله [عَلِمَتْ نَفْسٌ] .

[يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾]: هذا الأسلوب فيه عتاب مؤثر للغاية. [ٱلْإِنسَٰنُ] ذكر بعض المفسرين أن لمراد بالإنسان، في القرآن المكي، الإنسان الكافر، لا جنس الإنسان. [مَا غَرَّكَ]) "ما"

---

[1] صحيح مسلم (١٦٣١).

استفهامية، والمعنى: ما الذي زين لك، وسول لك، فهذا استفهام إنكاري، ينكر على هذا الإنسان المنفلت، تركه لعبادة الله ﷻ [بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ] هو رب بمعنى خالق ، ورازق، ومدبر، وفوق ذلك هو كريم عليه، ولطيف به، فأي شيء غرك به، وسول لك ترك عبادته، وزين لك معصيته ؟!

[ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾]: معنى [خَلَقَكَ] أي أنشأك، وأوجدك من العدم، فقد أوجد أبانا آدم، عليه السلام، من العدم. ومعنى [فَسَوَّىٰكَ] أي عَدّل خلقك، وكملك، فصرت مستقيم القامة ، لست كهيئة الحيوانات التي تمشي على أربع، بل أنت معتدل مستقيم. ومعنى [فَعَدَلَكَ]: أي جعلك على هيئة حسنه معتدلة .

[فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾] أي أنه لو شاء ركبك في أي صورة ، فلو شاء لجعلك مسخاً، لكنه جعلك في صورة كريمة، وهي هذه الصورة التي خلقك عليها، إما أن تنزع بشبهك إلى أمك، أو إلى أبيك، أو إلى عمك، أو إلى خالك، وهذا من بديع خلق الله، فلا تجد بشرين متطابقين تمام المطابقة، وهذه سعة لا يملكها أحد إلا الله، لكل إنسان صورة مستقلة، متفردة، حتى التوائم المتشابهة، التي تخرج من انفلاق بويضة مخصبة واحدة، لا يمكن أن تتطابق، بل تجد بينهما فروقاً. لكن هذه الصور، منها صور متباينة، ومنها صور متقاربة في الأطوال، والألوان، والسمات، حتى إن بصمة الإنسان لا يماثلها بصمة! وهذا الخلق الذي أجمل الله ذكره، يستطيع أن يتأمله كل مخاطب؛ فالأعرابي في باديته، والأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، حينما يُسَرِّح طرفه، ويُعمل عقله، يجد عجباً، وينبهر، ويندهش من سعة خلق الله، وبديع صنعه، وتدبيره، حتى أنك تسمع من بعض العوام الذين لا يقرؤون، ولا يكتبون، استنباطات، ومعاني ما تسمعها من بعض العلماء. ثم إن العلم الحديث أتى بالعجائب، فيما يسمى بعلم وظائف الأعضاء، مما يزيد هذه المعاني وضوحاً، ويزيد الإيمان قوة ففي بدنك جهاز هضمي، وجهاز دموي، وجهاز عصبي، وجهاز عضلي، وجهاز عظمي، وجهاز تناسلي، وتركيبة نفسية معقدة! فهذا الخليط، والمزيج، في بنية واحدة، من ركَّبه ؟ من سوَّاه ؟ من عدله ؟ الله ﷻ. وتبدو محاولات البشر فيما يسمي بالإنسان الآلي، الذي يحاولون أن يدخلوا فيه بعض حركات الإنسان وتصـرفاته، محاولات عبثية، يضاهئون خلق الله وأنى لهم. فهذه آية تطأطئ لها الرقاب،

وتخضع لها الأعناق. ووقع هذه الآيات على النفس وقع قوي، فمن كان به خير، وأراد الله به خيراً، فإنها تهزه من الأعماق؛ لأنها تذكره بأصل نشأته، وتمرحله، وتطوره منذ أن كان جنيناً، إلى أن خرج طفلاً رضيعاً، إلى أن شب، واستوى، واستقام. هذه المؤثرات هي التي تنصع الإيمان في القلب. ولهذا ينبغي للدعاة إلى الله ﷻ، أن يتذرعوا بها، وأن يحركوا بها كوامن الفطر، وأوتار القلوب .

[كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾]: [كَلَّا] كلمة ردع، وزجر. ومعناها: ليس الأمر كما تظنون ، ومعنى [بَلْ]: أي لكن، [تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ] يعني: ألا يعظكم، ألا يزجركم إقراركم بربوبية الله، فيحملكم على عبادته ؟ فالله تعالى يسوق آيات الربوبية، ليبين استحقاقه للعبادة سبحانه وبحمده. ومعنى [بِالدِّينِ]: أي الجزاء ، من دنته فدان، أي: ذل، وخضع ، فالله تعالى هو الذي يدين العباد، والله تعالى قد خلق السموات والأرض بالحق، فليس من الحق أن يموت الظالم على ظلمه ، والمظلوم على مظلمته ، والمحسن على إحسانه دون ثواب ، والمسيء على إساءته دون عقاب، فلهذا كان الجزاء من دلائل البعث.

[وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾]: هذه الجملة مؤكدة بأنواع المؤكدات [وَإِنَّ]،[عَلَيْكُمْ] ، [لَحَافِظِينَ] هم الملائكة. وتأمل في لفظ [عَلَيْكُمْ] ، لم يقل "عندكم" أو "معكم" بل قال [عَلَيْكُمْ] ليفيد التسلط والرقابة، وهو يشعر بالخشية، والرهبة، [لَحَافِظِينَ] فهم حفظة، ومؤتمنون ، وضابطون لعملهم، لا يفرط منهم شيء، كما قال في آية أخرى: [مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾] {ق:١٨}، وقال: [بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾] {الزخرف:٨٠}.

[كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾]: أي شرفاء، أمناء، حفظة، ضابطين، كاتبين؛ لأن الكتابة توثيق. ولهذا أمر الله تعالى بها فقال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ] {البقرة:٢٨٢}.

[يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾]: جعل الله ملائكته يحصون على العباد، ويسجلون ما يبدر منهم، من خير أو شر، لأنهم يباشرون ذلك، فإذا أوصد الإنسان الأبواب، وأرخى الستور، وظن أنه قد غاب عن الأعين، فليذكر أن معه كراماً كاتبين. فلو شعرت أنه يطلع عليك فلان، الذي تُجِلُّه، وتقدره،

ستخجل، وترعوي، وتستحي من مقارفة هذا الفعل المشين أمامه ، فكيف إذا ذكرت أن معك كراماً كاتبين؟ وكيف إذا ذكرت أن الذي يراك رب العالمين؟

[إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾]: [ٱلْأَبْرَارَ] جمع بر، والبر هو كثير الخير؛ ولذلك سمي البر براً، لسعته. ومعنى [نَعِيمٍ] النعيم: هو الجنة، وما فيها من أنواع المتع. وأتى بحرف "في" [لَفِى نَعِيمٍ]، ولم يقل "إن الأبرار لهم نعيم" ليعطي معنى الانغماس والانغمار، كأنهم غمسوا في النعيم غمساً، واصطبغوا به، وغمرهم من كل جانب .

[وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾]: [ٱلْفُجَّارَ] جمع فاجر، من الفجر، وهو هتك ستر الدين ، فكأنه لما هتك ستر الدين ، وتقحم الحرمات، سمي فاجراً. [جَحِيمٍ]: اسم من أسماء النار، والعياذ بالله، ونقول في (في) ما قلنا في قوله [لَفِى نَعِيمٍ] أنهم منغمسون فيها .

[يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾] : [يَصْلَوْنَهَا] أي يصطلون بنارها، ووهجها، وحرها، فتحرقهم، وتشويهم، والعياذ بالله ، حتى إن النبي ﷺ، أخبر عن قوم من عصاة الموحدين، يدخلون النار(حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ، ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ)رواه مسلم[1] ، فكيف بأهل النار الذين هم أهلها؟

[يَوْمَ ٱلدِّينِ] هو أحد أسماء القيامة، لأنه يوم الجزاء والحساب ، وتقدم أن ليوم القيامة أسماء عدة، بلغ بها بعض العلماء ثمانين اسماً، وأن أسماء القيامة أعلام، وأوصاف، كما أسماء الله الحسنى، وكما أسماء نبيه ﷺ، وكما أسماء القرآن.

[وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾]: يعني أنهم لا يغيبون عن العذاب طرفة عين، كلما فرغوا من عذاب انتقلوا إلى آخر، عياذاً بالله، وكلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم، أعيدوا فيها، عياذاً بالله. شيء تقشعر له الأبدان، لمجرد ذكره فكيف بمن اصطلى بناره ؟ وفي هذه الآية ما يدل على بقاء النار، وأنها لا تفنى، وأن أهلها لا يخرجون منها .

---

[1] صحيح مسلم (١٨٥).

[وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾]: هذا الاستفهام، وهذا التكرار، يراد به التفخيم، والتعظيم، والتهويل. [وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ]: كأنما يقال: ذلك الإنسان لم يقدر الأمر حق قدره، "أتدري ما يوم الدين ؟ أتعرف ما يوم الدين ؟" كما قال: [ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾] ؛ و [ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾]

ثم أجاب الله تعالى على هذا السؤال ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، فقال : [يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾] ولهذا نظير، كقوله: [لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ] {غافر:١٦}. أي لا تملك أي نفس، لأي نفس أخرى نفعاً، ولا ضراً، (شيئاً) نكرة في سياق النفي، فتدل على العموم. [وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ] كقوله: [لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ] {الروم:٤} .

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: بيان أهوال يوم القيامة.

الفائدة الثانية: إثبات البعث من قوله [وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾].

الفائدة الثالثة: إقرار الإنسان بعمله يوم القيامة [عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ] .

الفائدة الرابعة: وقوع الكافر في الغرور ([يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾] .

الفائدة الخامسة: أن العبادة هي مقتضى الربوبية.

الفائدة السادسة: بديع صنع الله في الإنسان .

الفائدة السابعة :ذم منكري البعث لقوله: [كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾].

الفائدة الثامنة: الإشارة إلى أحد دلائل البعث، وهو الدينونة، لأنه يحصل بها إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

الفائدة التاسعة: الإيمان بالملائكة الكرام ، وهو أصل من أصول الإيمان.

الفائدة العاشرة: خلود النار، ودوام العذاب على أهلها، من قوله [وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ].

الفائدة الحادية عشر: بطلان الشرك، وكل تعلق بغير الله، وهذا يؤخذ من الجملة الأخيرة من قول الله ﷻ: [يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩] ، ومن تعلق بغير الله وكل إليه، فكل من تعلق بسبب فإنه ينقطع، إلا ما كان سبباً إلى الله ﷻ؛ من خوف ، أو رجاء ، أو محبة ، أو توكل ، أو نحو ذلك .

سورة المطففين

سورة المطففين من السور المكية.

ومن مقاصد هذه السورة:

المقصد الأول: بيان العلاقة الوثيقة بين العقيدة والسلوك، والإيمان والقيم: فهي تعالج ظاهرة سيئة عند المخاطبين، وهي تطفيف الميزان، وقد يبدو لبعض الناس أن مثل هذا الانحراف، من الأمور الفرعية التي ليس هذا أوان بحثها، وعلاجها، لكن إيراد هذه القضية، ومعالجتها في القرآن المكي، دليل على الصلة الوثيقة بين العقيدة القلبية، والسلوك العملي، وبين الإيمان، والقيم الخلقية .

المقصد الثاني: تصنيف الناس إلى فريقين؛ الأبرار، والفجار، فريق في الجنة، وفريق في السعير، وإلى حزبين؛ حزب الله، وحزب الشيطان، وإلى سعداء، وأشقياء.

المقصد الثالث: ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من النعيم، والعذاب.

المقصد الرابع: طمأنة المؤمنين بأن العاقبة للتقوى: وما أحوج المؤمنين في العهد المكي، إلى هذا المعنى، وهم في مرحلة الاستضعاف، والاستذلال، والأذى.

[وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾]

[وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾]: هكذا تستهل السورة بهذا الوعيد الشديد. وكلمة [وَيْلٌ] في اللغة كلمة وعيد، وعذاب. وقيل إنها اسم لوادٍ في جهنم، ولكنها بالمعنى الأعم تدل على الوعيد والعذاب .

[ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾]: هذا هو تفسير التطفيف، يعني أنهم إذا أرادوا أن يأخذوا الكيل لأنفسهم استوفوا حقهم تاماً، [وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ] يعني أنهم إذا كالوا للناس، أو وزنوا للناس، نقصوهم وبخسوهم حقهم. فالتطفيف، إذاً عبث بالمكاييل والموازين؛ إما بأخذ زيادة على المستحَق، وإما بنقص من الحق. وكلا الأمرين يحصل لكثير من الناس أثناء البيع والشراء.وقد قيل إن هذه السورة، أو صدرها على الأقل نزل في أول العهد المدني، روي ذلك عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ حين قدم المدينة، كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلاً، فنزلت هذه الآيات، وقيل غير ذلك. والغالب، والله أعلم، أنها سورة مكية بجميع آياتها، وأن التطفيف، كان موجوداً لدى أهل الجاهلية. ونلحظ، أيضاً، أن القوم من أصحاب الاحتكار، يضطرون الناس إلى القبول بهذا الميزان المجحف؛ لحاجة الناس إليهم، فإن الناس يأبون أن يبخسوا أشياءهم، ولكنهم

مضطرون إلى القبول. وهذا ما ينطبق انطباقاً كبيراً على حال الاقتصاد العالمي اليوم، فإنه يقع فيه التطفيف، وإلجاء الناس، بطرق الاحتكار المختلفة، إلى أن يقبلوا بالضيم، لينالوا حصتهم، وما يحتاجون إليه، فيتلاعب التجار الجشعون بالأسعار، ويرفعونها ليمتصوا دماء الفقراء. ولا حيلة للفقراء، إلا أن يبذلوا أموالهم؛ لأن هذه المواد، قوام حياتهم. فمسألة التطفيف لا تقتصر فقط على هذه الصورة البسيطة؛ أن ينقص من الوزن، أو أن يستوفي لنفسه، بأن يزيد قدر كف من طعام، أو نحوه.

وقد كان هذا الوصف الذميم، أعني بخس الناس أشياءهم موجوداً لدى أمة عذبت، وهي مدين، الذين بعث فيهم شعيب، عليه السلام، فكان يقول لهم [وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾] {هود:٨٤}، فهذا الأمر كان موجوداً في الأولين، ولا يزال موجوداً في الآخرين. وحين وقع العالم بأجمعه، في هذه القرون الأخيرة، في قبضة الاقتصاد اليهودي الربوي، فشت هذه المظاهر، وصار الناس أسرى لهذه المظالم، فلا يخفى أن الاقتصاد العالمي، اليوم، اقتصاد ربوي، وضع نظرياته، وآلياته، اليهود، وساقوا العالم بأجمعه على قانونه، وصار الربا فاشياً، شائعاً في جميع الأمم. وهذه الشريعة الغراء جاءت بتحريم الربا، حتى إنك لا تكاد تجد من الكبائر ما ورد فيه وعيد وتهديد في كتاب الله، كما ورد في الربا. وهذا يدلنا على كمال هذه الشريعة، وأنها منذ بزوغها كانت تهدف إلى إصلاح القلب، وإصلاح الحياة معاً، فلا يقال إن شريعة الإسلام تصلح السرائر وحسب، بل تصلح السريرة، والعلانية، تصلح الفرد، وتصلح المجتمع . فلأجل ذا وقع التنبيه على هذا الانحراف في العهد المكي.

ومن المفسرين من وقف على (كَالُوا)، و (وزنوا) فقرأ : "وإذا كالوا، هم يخسرون وإذا وزنوا، هم يخسرون" فعلى القراءة المشهورة، تكون متعدية، ومكتفية بذاتها، وعلى قراءة الوقف على "كالوا" تكون "هم" ضمير، من الكائل، والوازن. والأولى حسبانها كلمةً واحدة، ومما يدل على ذلك أن ألف الجماعة لم ترسم في المصحف بعد "كالو" و "وزنو".

[أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤]: استفهام إنكاري [أَلَا] أداة تنبيه، والمقصود بها التوبيخ، والتبكيت، [يَظُنُّ] بمعنى يستيقن، وإلا فربما يطيف بقلوبهم طائف، أنه ثم بعث، لكن القوم لم يستيقنوا، ولو استيقنوا، لاستقام سلوكهم، لكن لا يقين عندهم ، بل هم إما منكرون للبعث، وإما متشككون فيه، ومعنى [مَّبۡعُوثُونَ]: أي مخرجون من قبورهم أحياء .

[لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦]: يا لها من موعظة! ويا له من زجر! هذه الموعظة ينتفع بها المؤمن، وإن كانت في الأصل موجهةً إلى الكافر. فأنت إذا وعظت غيرك، وعظت نفسك. قل لنفسك، كما قال الله : ألا تظن أنك مبعوث ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين! ؛ لأن غالب ما يقع منا من التقصير، والمعصية،والغفلة، وظلم النفس، وظلم الآخرين، إنما هو ناتج عن ضعف اليقين بالآخرة، ولو كان اليقين بالآخرة قائماً في القلب دائماً، لاكف الإنسان عن كثير من المعاصي والمظالم، لكن القلب يذهل عن ذلك الموعد الحق، فإذا غاب عن باله البعث، واليوم الآخر، والجنة، والنار، صار يطأ السهل، والوعر، ويجترح السيئات، ويقترف المعاصي؛ لغياب هذا الرادع عن قلبه.

فمن أعظم أسباب الموعظة، أن يعظ الإنسان نفسه باليوم الآخر، ودعك من أقوام يقولون: لا فائدة من المواعظ، المهم الإقناع بالعقل! لابد من الإقناع العقلي، ومن تحريك الوجدان والموعظة. كم من إنسان تحصل له القناعة العقلية بصحة كذا، وخطأ كذا، لكنه لا ينقاد لمقتضى العقل! فلابد من الجمع بين الأمرين. ولهذا قال الله تعالى: [ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ] {النحل:١٢٥} فالحكمة: الأمر المحكم الذي يقطع العقل بصوابه، والموعظة: ما يلامس القلب، ويستجيش الوجدان. فجاء هذا التهديد لهؤلاء المطففين، باليوم الآخر الذي ترتعد الفرائص عند ذكره، تقول فاطمة بنت عبد الملك، زوج عمر بن عبد العزيز، رحمهما الله: " ...لقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشئ من أمر الآخرة فينتفضُ كما ينتفض العصفور في الماء، ويجلس يبكي، فأطرح عليهِ اللحاف رحمة له"[1] هكذا القلب المؤمن باليوم الآخر، يردعه إيمانه عن كثير من المحرمات، والشبهات، والمكروهات، وخلاف الأولى.

---

[1] البداية والنهاية (٩/٢٢٩) إحياء التراث.

وإنما سميت القيامة قيامة، لأسباب منها: هذا [يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ]، أي أنهم يبعثون من قبورهم أحياءً، ينتصبون على أقدامهم، حفاة، عراة، غرلاً، [لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ]: يعني للوقوف بين يديه، والحساب، والجزاء الذي يفضي إلى جنة أو نار.

ومنها: قيام الأشهاد، قال الله تعالى [إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾] {غافر:٥١} .

ومنها: إقامة الموازين قال تعالى : [وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ] {الأنبياء:٤٧}.

والربوبية نوعان: الربوبية عامة: وهي التي تشمل جميع الخلق[ٱلۡعَٰلَمِينَ]. لأن (عَالَمِينَ) جمع عالَمَ وهو كل من سوى الله من إنس، أو جن، أو طير، أو وحش، أو ملك. فالربوبية العامة معناها أن الله سبحانه وتعالى خلقهم، ورزقهم، ودبر أمورهم. وأما الربوبية الخاصة: فهي ربوبيته سبحانه وتعالى لأوليائه المؤمنين، وذلك باللطف بهم، وتيسير أمورهم، وحفظهم في دينهم، ودنياهم،ويمكن أن نضيف ربوبية خاصة الخاصة: وهي ربوبيته للأنبياء والمرسلين، وأخصهم نبينا ﷺ ، فإن ربوبيته لهم أخص ما يكون.

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: ذم التطفيف، وتوعد فاعليه.

الفائدة الثانية: منافاته للعدل والإنصاف.

الفائدة الثالثة: التهديد، والموعظة باليوم الآخر.

الفائدة الرابعة: إثبات البعث والقيامة الكبرى.

الفائدة الخامسة: ربوبية الله العامة [يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾].

[كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾]

[كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾]: ابتدأ الله تعالى بذكر هؤلاء أولاً، لأن الحديث كان عن أشكالهم، وهم المطففون فناسب قرنهم بهم، قبل ذكر الأبرار. وكلمة (كلا) كلمة ردع وزجر ، والمعنى: ليس الأمر كما تعتقدون وتظنون من إنكار البعث. وقال بعض المفسرين إنها في مثل هذا السياق معناها: "حقاً". وإلى هذا ذهب السيوطي، رحمه الله، فجعلها نوع إثبات.ومعنى (كتاب) أي مكتوب،وأصل الكتْب في اللغة: الجمع، ومنه قولهم: "تكتب بنو فلان" يعني: تجمعوا، وقولهم "كتيبة" لجماعة الخيل. فدل ذلك على أن المراد بكتاب الفجار الديوان الذي يجمع هؤلاء الفجار. وقد تقدم أن "الفجار" هم الذين هتكوا ستر الدين بالكفر، والفسوق، والعصيان؛ لأن الفجْر بمعنى الهتك.

[لَفِى سِجِّينٍ]: قيل في معنى (سجين) أنها الأرض السابعة، أو موضع في أسفل الأرض، يقال له سجين. وأصل اشتقاقه من السجن، وهو الحبس في مكان ضيق حرج، ومما يؤيد أن سجين موضع في أسفل سافلين، في الأرض السابعة، ما جاء في حديث نزع الروح، أنه إذا قبضت روح العبد الكافر (يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ] {الأعراف:٤٠} فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: [حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾] {الحج:٣١}) رواه أحمد في المسند[1] . فهذا يؤيد هذا المعنى المأثور عن بعض السلف .

[وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾]: المراد بهذا السؤال التعظيم، والتهويل. وكثيراً ما يرد في القرآن العظيم السؤال عن الشيء بقصد التعظيم، كقول الله تعالى: [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾] {الانفطار:١٧}، وقوله: [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾] {الحاقة:٣}، فمثل هذا الأسلوب يلفت الانتباه، ويعظم المقام .

[كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾]: يعني ذلك الكتاب الجامع لأعمالهم، وحالهم، مرقوم، أي مختوم، مفروغ منه، لا يزاد فيه، ولا ينقص. عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَفِي يَدِهِ

---

[1] المسند (١٨٥٣٤) صحح إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط.

كِتَابَانِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟ فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ! إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ، وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا. ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ، وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا)رواه الترمذي[1]

وسمي مرقوماً، تشبيهاً له بالرقم في الثوب، والرقم في الثوب، يعني الخط، أو العلم الذي يكون في القماش، يكون ثابتاً فيه، لا يذهب منه. فالمرقوم هو المخطوط، أو المكتوب .

[وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾]: وكلمة [وَيْلٌ] تقدم معناها، والمكذبون هنا هم المكذبون بالبعث؛ لأنه قد قال [أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾] فهذا الإنكار أو الشك هو الذي أوردهم المهالك .

[ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾]: كما قال: [زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي] {التغابن:٧} ، هذه من المفاصل التي كانت بين النبي ﷺ، وبين الكفار. ومعنى (الدين) أي الجزاء .

[وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾]: هذا مثال للترابط بين العقيدة الباطنة، والسلوك الظاهر؛ فمن غلب عليه العدوان، والإثم، صار قلبه أغلفاً، لا يقبل الحق ولا يرضاه، بل يستثقله ويأباه. ومعنى [مُعْتَدٍ] أي متجاوز الحد من العدوان، و[أَثِيمٍ]: صيغة مبالغة على وزن فعيل، يعني والغ في الإثم، وهو ارتكاب المحظور.

ووجه الترابط بين العدوان والإثم، وبين إنكار البعث، أن الذي يسرف على نفسه بالمعاصي، والذنوب، وظلم الآخرين، يقلقه، ويزعجه، أن يقال له: إن من ورائك يوم آخر، يجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته. فلذلك ينزع إلى نبذ هذه العقيدة، وإقصائها، ودفعها. ولهذا كان أصحاب الشهوات، المسرفين على أنفسهم، يدخل عليهم شك عظيم في هذا الباب؛ لأن الشهوات تلقح الشبهات.

---

[1] سنن الترمذي (٢١٤١) حسنه الألباني.

[إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾]: تتلى عليه آيات بينات، تخضع لها الرقاب، وتعلم العرب، وهم أهل الفصاحة، والبلاغة، أن هذا القول قول كريم، لا يستطيعون الإتيان بمثله، ومع ذلك: [وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ] {الأنعام:٢٦} ينهون عنه أتباعهم أن يصغوا إليه، وينأون عنه بأنفسهم لئلا يخضعوا لسلطانه!

وأساطير جمع أسطورة، بضم الهمزة، أو إسطارة، بكسر الهمزة، والمقصود بها الحكايات المسطورة، القديمة. وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلم إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثا مني[1].

يظن أن المسألة ترويج أساطير، وحكايات، ونحو ذلك، وشتان شتان! هذا الكتاب ليس كتاب أقاصيص، أو تسالي، وإنما يتضمن من الحقائق العظيمة، الثقيلة ما تحيا به القلوب ، وتصح به العقول.

[كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾]: (كَلاّ) تقدم معناها، [بَلْ ۜ رَانَ]: أي غطى، وغشى، وغمر. وهذا شاهد ثالث للعلاقة الوثيقة بين القلب والسلوك. فهذا الكسب الذي كسبوه بالتطفيف، كون على قلوبهم طبقة صلبة، فصارت قلوبهم بسبب كسبهم للمال الحرام، وتكذيبهم بالحق، كالحديد إذا صدأ. فهؤلاء الذين يكسبون الآثام، والعدوان، والمال الحرام، يقع على قلوبهم (الران) . وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ، وَاسْتَغْفَرَ، ﷺوَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ. وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: [كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾])رواه الترمذي[2] .

---

[1] السيرة لابن هشام (١٣٨/٢)، البداية والنهاية (١١٠/٣) .

[2] سنن الترمذي (٣٣٣٤)، قال حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني.

ودون الران، الغان، ويدل عليه قول النبي ﷺ: (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)رواه مسلم[1]، وذلك أن المؤمن بحكم بشريته، ربما أدركته غفلة، لكن هذه الغفلة قشر رقيق، ما أن يذكر الله ﷻ ، حتى تتقشع. أما الران فهو طبقة سميكة؛ تنشأ عن تراكم النكت السوداء، حتى لا ترى حقاً، ولا تسمع حقاً. جاء في حديث حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ؛ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)رواه مسلم[2] .

[كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥] : (يومئذ) أي يوم القيامة، (عن ربهم) هذه ربوبية عامة، (لمحجوبون)أي محجوبون عن كرامته، ونعمته. وأعظم النعم التي يحجبون عنها النظر إلى وجه الله الكريم. وهذه الآية وما يقابلها بعد بضع آيات، وهي قول الله تعالى[عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ] مما استدل به أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة. قال الشافعي رحمه الله: "فلما أن حجبوا هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا قال الربيع: قلت: يا أبا عبدالله وبه تقول؟ قال: نعم به أدين الله"[3].

[ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦]: يعني داخلو الجحيم، وحاصل لهم التصلية، بمعنى أنهم يحرقون، ويشوون فيها.

[ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧]: اجتمع عليهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي، أما الحسي فظاهر، وأما المعنوي، فهذا التبكيت الشديد .

---

[1] صحيح مسلم (٢٧٠٢).

[2] صحيح مسلم (١٤٤).

[3] شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي (٥٠٦/٣) دار طيبة.

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: إثبات القدر السابق، وذلك في قوله تعالى: [كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ] فهو كتاب مفروغ منه؛ لأن الله وصفه بأنه مختوم.

الفائدة الثانية: النكير على المكذبين بالبعث.

الفائدة الثالثة: تلازم صفات السوء،فهؤلاء جمعوا أوصافاً سيئة متلازمة؛ وهي الفجور، والتكذيب، والعدوان، والإثم، فأوصاف السوء يمسك بعضها برقاب بعض.

الفائدة الرابعة:تأثير الكسب الحرام على القلب

الفائدة الخامسة: شدة عقوبة الكافرين الحسية والمعنوية .

[كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾]

[كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ]: [ٱلْأَبْرَارِ] قد تقدم معناها.

[وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾]: الاستفهام للتفخيم، والتكريم. و[عِلِّيُّونَ] : موضع في السماء السابعة. وقد ورد في بعض الآثار أنها قائمة العرش اليمنى،وقيل: موضع عند سدرة المنتهى، وهذه المعاني جميعاً تدل على العلو والرفعة.

[كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ]: أي مختوم لا يزاد فيه ولا ينقص، وليس تعريفاً لعليين. ومعنى[يَشْهَدُهُ]: يحضره، [ٱلْمُقَرَّبُونَ] مقربو كل سماء من الملائكة .

[إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾]: كلمة (في) تدل على الانغماس التام في النعيم، والنعيم هو الجنة، وما فيها من المباهج، والسرور، والنعيم الحسي والمعنوي.

[عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾]: متكئون على الأرائك التي تحملهم وتقلهم. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير. ويقول المفسرون: هي السرر في الحجال. والحجلة: المكان المزين، المزوق، المهيأ. فهي أريكة في إطار جميل، وفي موضع مزخرف، مزين. ولا شك أن هذا يعطي انطباعاً نفسياً طيباً، ومحبباً

للنفس. [يَنظُرُونَ] إلى ما آتاهم الله، ﷻ، من أنواع النعيم؛ من الحور العين، والأشجار، والأنهار، إلا أن أعلى ذلك النعيم هو النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال الله تعالى في سورة القيامة [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾] {القيامة:٢٢-٢٣} فنظرتها إلى وجه الله الكريم، أكسبها نضرةً، وبهاءً، وجمالاً، يقول ابن القيم:

فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة أمن بعدها يسلو المحب المتيم

[تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾]: إن كان التنعم يعرف في الوجوه في الدنيا، فلأن يعرف في الآخرة من باب أولى، ترى بعض المترفين فتقول: هذا وجهه وجه نعمة، وقد ترى بعض البائسين وجهه كالخشبة! يبين هذا في القسمات، وهم في الدنيا على نعيمها المحدود، فكيف في الآخرة، حينما يجري في عروقهم النعيم الحقيقي، الذي ينّعم الله تعالى به أوليائه.ومعنى [نَضْرَةَ النَّعِيمِ] أي بهاءه، ورونقه وإشراقه.

[يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾]: لا يتكلفون همَّ جلبه، وإنما يسقون إياه، فهم مكفيون. والمقصود بالرحيق : أي الخمر الخالص من الدنس، ليس كخمر الدنيا، ينشأ عنها صداع، وتقيؤ، ونحو ذلك، بل كما قال الله ﷻ [لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾] {الواقعة:١٩} فهي خمر خالصة (خمر لذة للشاربين). ومعنى [مَّخْتُومٍ] أي لم يفك ختمه، وهذا أحب للنفس، فرق بين أن تشرب من إناء قد سبقت إليه، وبين أن تكون أنت أول الشاربين.

[خِتَامُهُ مِسْكٌ]: هذا القرن بين الآيتين يعطينا معنىً عجيباً؛ أنه رحيق مختوم، وختامه مسك، فهذا المسك قد خالطه عند ختمه، يجده شاربه عند آخر شربة منه ،فالمسك يستنشقه من أول ما يفك ذلك الختم، إلى أن يأتي على آخر قطرة فيه ؛ فالختم بالمسك صاحب أولَه وآخرَه. والمسك معروف. وهذه الألفاظ، والأسماء، وضعت للدلالة على النعيم، وإلا فليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، كما قال ابن عباس، رضي الله عنهما. ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء[1]. قال عبد الرحمن بن زيد، في

[1] تفسير الطبري (١/٤١٦).

قوله:"وأتوا به متشابهًا"، قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا، التُّفاح بالتفاح والرُّمان بالرمان، قالوا في الجنة:"هذا الذي رزقنا من قبل" في الدنيا،"وأتوا به متشابهًا" يعرفونه، وليس هو مثله في الطعم[1]؛ في الجنة ماء، وخمر، ولبن، وفيها حور، وقصور، وفيها من جميع أنواع المتع، وهذه الأسماء معهودة لنا في الدنيا، ومحببة إلينا، لكنها في الآخرة على صفة لا تخطر على بال، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: (قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ [فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ] {السجدة:١٧})متفق عليه[2] لكن الله ﷻإذا أراد أن يرغبنا في شيء، لابد أن يذكر لنا شيئاً نعهد جنسه، حتى يقع لنا نوع من الشوق، وإلا فإن ما في الدنيا لا ينسب إلى ما في الجنة، وإنما اتفقت الأسماء، والحقائق متفاوتة تفاوتاً عظيماً.

[وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾]: المشار إليه النعيم. وقد نبه المفسرون على أن هذه الجملة جاءت معترضة في سياق آيات النعيم، لتدل على فضل التنافس في الخيرات. والتنافس في الطاعات محمدة، لكن مع الإخلاص لله تعالى، فإن التنافس أحياناً يحصل بين الصالحين على وجه غير محمود، يورثهم شيئاً من الإحن، كما يقع عند بعض الحريصين على الطاعة حينما يتسابقون إلى الدنو من الإمام؛ هذا يقول دفعتني، وهذا يقول أخذت مكاني، فينشأ فيهم نوع حزازة، تشين أعمالهم، وتكدر نياتهم. والذي ينبغي للإنسان أن ينافس في الطاعة، مع اصطحاب الإخلاص لله تعالى، والمحبة للمؤمنين، فما تيسر له أخذه، وما لا، فليتعبد لله ﷻ بإيناس إخوانه، واستبقاء المودة، فإن هذا المعنى عظيم،فليتنبه الإنسان للتنافس الشرعي الصحيح، أما التنافس الذي يورث إحناً، وحنقاً، وغيظاً، وتحريشاً بين المؤمنين، فليس محموداً، والتنافس المحمود هو الذي يورثك محبة لأخيك، ورغبة في الاقتداء به، وحمداً له على فعله، وثناءً عليه، بحيث تبقى المودة، ولا يشوبها كدر.

---

[1] تفسير الطبري (١/٤١٦).

[2] صحيح البخاري (٤٧٨٠)، صحيح مسلم(٢٨٢٤).

[وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾]: (مزاجه) يعني ما يخلط به، (من تسنيم) التسنيم: فسرها الله ﷻبقوله: [عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾] فهو ماء يتحدر عليهم من عين في أعلى الجنة، يقال لها تسنيم. فالمقربون يشربون منها صفواً لا كدر فيه، ومن بعدهم يشربون إثرهم. ويخلط ذلك الرحيق المختوم، بالتسنيم.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: الثناء على أهل الإيمان والخير.

الفائدة الثانية: إثبات الملائكة [يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾] .

الفائدة الثالثة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة [عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾] .

الفائدة الرابعة: عظم نعيم المؤمنين حسياً،ومعنوياً.

الفائدة الخامسة: التحريض على التنافس في الطاعات.

الفائدة االسادسة: تفاوت درجات أهل الجنة؛ لقوله (المقربون)، فثمَّ مقربون، وثم دون ذلك، كما ذكر ذلك مفصلاً في سورة (الواقعة) .

[إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾]

هذا بيان من الله ﷻ، لحال المؤمنين والكفار، أو الأبرار والفجار الذين جرت الإشارة إليهم في صدر هذه السورة؛ بيان حالهم في الدنيا، ومآلهم في الآخرة. وهذا من حسن عرض القرآن العظيم لهذه الحقائق، فالسورة تهدف إلى تصنيف الناس إلى فريقين، وبيان حال هذين الفريقين، وطمأنة المؤمنين على عاقبتهم. [إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾] أي في الدنيا يضحكون منهم سخرية، واستهزاءاً. وهذا هو الذي جرى حين صدع النبي ﷺ بدعوته، فلقي هو، والقلة المؤمنة الذين آمنوا معه، من المشركين جميع صنوف الأذى، ومن هذا الأذى الضغط النفسي، أو ما يسمى

بلغة العصـر: الحرب النفسية . فقد كان هؤلاء المجرمون يشنون عليهم حملات إعلامية؛ يضحكون منهم ويسفهونهم. ولا يخفى أن هذا اللون، قد يكون أشد فتكاً من الأذى الحسي.

[وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾]: هذا الاستفزاز يؤثر في النفوس أشد من تأثير الجلد بالسياط، أو الجراح، أو غيرها، ذلك أنه ينفذ إلى النفس، فأما المؤمن فلا يزيده ذلك إلا ثباتاً، وتوكلاً على ربه ﷻ، وأما من كان في قلبه مرض، فإنه سرعان ما ينهار، كما قال ربنا ﷻ: [أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾] {العنكبوت:٢-٣}، فكان الكفار يمارسون هذا اللون من الضغط والأذى، فهم يتضاحكون من المؤمنين، وكأن المسألة محسومة، ومفروغ منها، وأن هؤلاء في ضلال مبين. ثم يتبعون ذلك بالتغامز، إذا مروا بهم، يأخذ بعضهم يحرك حاجبه، وجفنه، ويغمز بعينه، فيؤثر في النفوس لأن شعور الإنسان بأنه مستهدف ممن حوله، يتكلمون به، وينالون منه، يحز في نفسه، كما قال ربنا ﷻ: [وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾] {القلم:٥١} ! فهذه الألوان من الأذى النفسـي، كانت تمارس ضد الأبرار، لكن الله سبحانه وتعالى يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة. واعتبر بما جرى لنبينا ﷺوالمؤمنين، حين حدثهم النبي ﷺ بحادث الإسراء والمعراج، كيف أن أبا جهل جمع الناس، لا رغبة في نشر الدين، والدعوة، وتبليغ ما أوحي إلى رسوله من ربه، وإنما ليقول للناس: انظروا إلى محمد، يزعم أنه أتى بيت المقدس في ليلة، ونحن نضرب إليه أكباد الإبل شهراً! لكن السحر انقلب على الساحر، وثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت. وأما من كان في دينه دخل، فقد انقلب على عقبيه.

[وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾]: هذا أيضاً من ألوان الأذى التي كان يفعلها هؤلاء الكفار، وهم أنهم حينما ينقلبون إلى أهليهم بمعنى: يرجعون إلى بيوتهم، يأخذون بالتندر، والتلذذ بذكر هؤلاء المؤمنين على سبيل السخرية، فمعنى [فَكِهِينَ] أي ملتذين، أو معجبين بصنيعهم بالمؤمنين. وهذه الصورة، صورة تعبر تعبيراً دقيقاً عن حال هؤلاء المجرمين الذين أشربوا في قلوبهم الكفر، وبغض أولياء الله، وهي صورة تتكرر في كل جيل وقبيل.

[وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾]: يقولون عن المؤمنين: إن هؤلاء تائهون عن الحق، باتباعهم محمداً ﷺ. وهذا ما يمارسه الإعلام العالمي اليوم، في حق نبينا ﷺ، وفي شأن دين الإسلام، وفي شأن دعاته وكتابه، فهذا التشويه لم يزل، ولا يزال، فيصفون النبي ﷺ بأبشع الأوصاف، ويصفون دين الإسلام بأنه دموي، وإرهابي، ويصفون دعاته بذلك، فهذا لم يزل، ولا يزال، ولن يزال. فالصراع بين الحق والباطل قديم.

[وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾]: أي أنكم يا معشر المجرمين، لستم أوصياء عليهم، ولا كاتبين لأعمالهم، حتى تردوهم إلى مصالحهم، ليس لكم وصاية، وقوامة عليهم، حتى تسجلوا عليهم ما يصنعون، وحتى تردوهم إلى ما تعتقدون. فلستم عليهم حفظة، فدعوهم وشأنهم . وهذا من سنن الله، قال الله ﷻ: [لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً] {التوبة:١٠}، ومن قرأ التاريخ وجد مصداق ذلك، بل ومن قرأ الواقع، فيما يجري للمسلمين في كل مكان، من شدة أذى أعدائهم لهم، كصنيع اليهود بالمسلمين في فلسطين، يعاملونهم بوحشية، وهمجية لا نظير لها، مما ينبئ عن حقد متقد، مضطرم في قلوبهم، وحين يقع لهم عشر معشار ذلك، يملأون الجو صياحًا، وما جرى للمسلمين في أواسط أوروبا، التي تدعي أنها راعية حقوق الإنسان، وما جرى للمسلمين في البوسنة، وكوسوفو، والجبل الأسود، والسنجق، ومقدونيا، على مرمى حجر من الموضع الذي أعلن فيه الإعلان العالمي المزعوم لحقوق الإنسان، يدلك على أن هذه سنن ثابتة؛ وهي شدة بغض الكافرين للمؤمنين.

فهذا الوصف لحال المؤمنين الأوائل مع المجرمين، يتكرر في كل جيل، وقبيل، وفي كل زمان، ومكان، كما أنه يتكرر أيضاً بنسب متفاوتة؛ فأشنع صوره وأشدها، ما يقع بين المؤمنين والكفار، ولكن ربما وقع نوع من ذلك بين أهل التقوى، وأهل الفسق، فالجاري أنه حينما يوجد قوم من الفساق، وإن كانوا مسلمين، ويقابلون أهل الصلاح والاستقامة والحسبة، فإنهم يأخذون بالسخرية بهم، والتندر بحالهم، وهيئتهم، فيضحكون، مثلاً، من التزامهم بالسنة؛ من إعفاء اللحى، وتقصير الثياب، ومن سمتهم، وكلماتهم، ويحاكونهم ويهزؤون بهم، وإذا انقلبوا إلى أهلهم، أو مجتمعاتهم، أو منتدياتهم ،ا أخذوا يتكلمون في سيرتهم، وينالون منهم. فهؤلاء شابهوا أولئك الفجار بنسبة معينة،

وربما، والعياذ بالله، يبلغ هذا الاستهزاء من بعض الفجار إلى درجة يخرجون بها من الملة، فإذا وقعت السخرية بالدين نفسه، أو بصاحب الدين بسبب تدينه، والتزامه بشريعة ربه، فإن هذا مقام خطير، قد يخرج هذا الساخر، وإن كان في الأصل مسلماً، من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر. ولما قال قوم من المنافقين، في قراء الصحابة، وهم النخبة المصطفاة من أصحاب النبي ﷺ، وهم يتفكهون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أكبر بطوناً، ولا أكذب ألسنةً، ولا أجبن عند اللقاء، أنزل الله تعالى: [قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ] {التوبة:٦٥-٦٦}[1].

فيجب الحذر البالغ، من أن ينجر اللسان إلى السخرية بأهل التقوى، والدين، وأعظم ذلك أن تقع السخرية بالعلماء؛ فإن العلماء هم الموقعون عن رب العالمين، فالنيل منهم ليس كالنيل من أحد من عامة المسلمين، وإن كان المسلم محترماً في جميع أحواله، وأصنافه، لكن لأهل العلم والدين مكانة خاصة؛ إذ أنهم يحملون شارة الشريعة، وشعار الدين، فالسخرية بهم تنجر على الدين. ولهذا ينبغي لطلبة العلم أن يحذروا العامة من السخرية من أئمة الدين، ورجال الحسبة، وطلبة العلم، وأن ذلك ليس كسخريةٍ بغيرهم.

[فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾]: الله أكبر! كيف انقلب الحال، في أول الآيات قال: [إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾] واليوم [ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ].

[عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾] وذلك أنهم يطلعون عليهم، وهم يعذبون في النار، بين أطباق الجحيم، فيضحكون من حالهم، كما حكى الله ﷻ في سورة (الصافات) عن أحد المؤمنين: [قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾] {الصافات:٥٤-٥٥}! فهذه جرت لشخص، وما في سورة المطففين لجماعة المؤمنين، وهم يضحكون من المجرمين.

---

[1] تفسير الطبري (١١/٥٤٣).

[هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ]: استفهام تقريري، ليس للنفي، ومعنى (ثوب) أي جوزي، وليس الثواب الذي بمعنى المكافأة الحسنة. والجواب: نعم! أنهم في الجحيم، والمؤمنون [عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ].

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى:أذية المجرمين للمؤمنين بالقول والعمل

الفائدة الثانية: الحرب النفسية للصد عن سبيل الله، فعلى المؤمن أن يتهيأ لمثل هذا وأن يتجبر بالله ويعتصم به.

الفائدة الثالثة: التشويه الإعلامي للحق، وأهله، ودعاته.

الفائدة الرابعة: اشتغال الكفار بما لا يعنيهم، وإفناء أعمارهم بما يرديهم.

الفائدة الخامسة: العاقبة للتقوى.

الفائدة السادسة: تسلية المؤمنين وطمأنتهم .

الفائدةالسابعة: أن الجزاء من جنس العمل .

سورة الانشقاق

هذه السورة – سورة (الانشقاق) – هي ثالث السور الأخوات، قال ﷺ " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ]، وَ[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ]، وَ[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ]"رواه الترمذي [1]. ذلك أن كل واحدة من هذه السور، ترسم صورة القيامة. فتضمنت هذه **السورة مقاصد عظيمة منها:**

١ – الإيمان بالبعث والقيامة.

٢ – الإيمان بالحساب والجزاء.

٣– الإيمان بالقرآن.

٤ – ذم منكري البعث والقرآن.

---

[1] سنن الترمذي (٣٣٣٣) وصححه الألباني.

[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾]

[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ] (إذا): أداة شرط ﴿.. انْشَقَّتْ﴾ أي انفطرت، كما نقول في قوله تعالى: [إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾] {الانفطار:١} أي انشقت فهما بمعنى واحد. وخير ما يفسر به القرآن هو القرآن. والمقصود بـ ﴿ انْشَقَّتْ ﴾ أي تصدعت، وتمزقت. فهذه السماء المحكمة التي تحدى الله تعالى بها الخلق أن يجدوا فيها أدنى فطور، تتمزق يوم القيامة.

قال الله تعالى: [وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾] أي سمعت. والأَذن هو السماع، ومنه قول النبي ﷺ: (مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ)متفق عليه[1]. فمعنى أذن: أي استمع، و أذنت لربها: أي سمعت وأطاعت، لأن السماع نوعان: سماع إدراك، وسماع إجابة، وطاعة. فالمقصود هنا سماع الإجابة، والطاعة.

﴿حُقَّتْ﴾ يعني: وحق لها أن تطيع، ذلك أن السموات، والأرضين، والجبال، طاعتها لله ﷻ طاعة كونية، بينما الإنسان طاعته لله ﷻ طاعة كونية وشرعية. وهذا معنى قول الله: [إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾] {الأحزاب:٧٢}. وليس معنى ذلك أن السموات، والأرضين، والجبال، أبت أن تطيع الله ، فالمقام مقام عرض، لكنها لا تطيق حمل الأمانة. وهي منساقة لأمر الله الكوني، دون الشرعي، ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لأن الله تعالى أعطاه الاختيار، ولأجل ذلك صار مبتلى بامتثال الشرع، ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] {الأحزاب:٧٢}. وليس معنى طاعة السماوات، والأرضين، والجبال، لأمر الله طاعةً كونية، أن هذه المخلوقات لا حقيقة لها، تخاطَب بها، بل يتوجه إليها الخطاب، وترد الجواب،

---

[1] صحيح البخاري (٥٠٢٤)، صحيح مسلم (٧٩٢).

على ما يليق بها. قال الله مخاطبا إياها: [فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾] {فصلت:١١} . فهذا يدلنا على أن لهذه المخلوقات ذات تعبر عنها، لا ندرك كيفيتها، ولا حقيقتها، وتسمع، وتطيع، وتستجيب لأمر ربها، وتسبح بحمده [وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...] {الإسراء:٤٤} فهذا أمر ينبغي أن يؤمن بجملته، وإن لم تدرك تفاصيله.

قال الله تعالى: [وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾] انتقل المشهد من أعلى إلى أسفل! هذه الأرض التي يدب عليها الإنسان، ويحرثها، ويزرعها، ويعيش في أكنافها، تتغير يوم القيامة: [وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ]: أي زيد في سعتها، وبسطت، ومدت مد الأديم. فالله يغير السموات والأرض يوم القيامة، كما في قوله: [يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ] {إبراهيم:٤٨}. الأرض التي كانت كروية، تبسط يوم القيامة، وتمد، ويزاد في سعتها، لتستوعب جميع الآدميين، والوحوش، وكل شيء كان على ظهرها، على مر القرون. ومن معنى المد أنه ليس فيها معلم لأحد، بل هي كالخبزة، كما روي عن سهل بن سعد الساعدي، ﷺ، في قوله تعالى: [فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ] {النازعات:١٤} قال: "أرض بيضاء عفراء خالية كالخُبزَة النَّقِيّ"[1]، أرض جديدة، لم يسفك عليها دم. قد أعاد الله تكوينها؛ فليس فيها جبل مشرف، ولا واد سحيق، ولا مغارات، ولا كهوف، ولا كثبان، بل هي أرض ممدودة، ليحصل البروز التام لله [وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ] {إبراهيم:٤٨}.

قال الله تعالى: [وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾]: يعني قذفت ما في بطنها من الأموات، وغيرهم. و(ما) من ألفاظ العموم، لأنها بمعنى اسم موصول.

[وَتَخَلَّتْ]أي تخلت عنهم، كما يقال تخلى الرجل: أي قضى حاجته، وأخرج ما في جوفه. فكأن هذه الأرض تخرج ما في جوفها من الأموات، وغيرهم ممن لا يعلمهم إلا الله ، فقد ورد في بعض الآثار أنها تلقي ما فيها، حتى أسورة الذهب. لكن المراد أصلاً، إخراج الأموات، وإثبات البعث.

[وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾]: كما أختها السماء، فأذنت: بمعنى سمعت سمع طاعة، وحق لها ذلك.

---

[1] تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٨٩).

[يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦] الكدح: هو العمل الذي فيه مشقة واتصال، فأنت أيها الإنسان في هذه الحياة تكدح كدحًا شاقًا متواصلاً يوشك أن تلاقيه، و للمفسرين قولان في مرجع الضمير في قوله ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾: منهم من قال: إن مرجع الضمير إلى العمل أي: فملاقى ذلك العمل، الذي كدحت فيه، ويشهد له قول الله تعالى: [يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ] {آل عمران:٣٠}. ومنهم من قال: إن مرجع الضمير إلى الله . وهذا الثاني أرجح. وبين المعنيين تلازم؛ فإن هذا العمل يُكدح به إلى الله ، فيخلو الله تعالى بعبده، ويوقفه على عمله، فيحصل اللقاء. وقد ذكر الشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، أن الملاقاة فيها معنى السير إلى الملك[1]، فلا تكون ملاقاة إلا بسير وقصد.

فليعلم الإنسان أن الكدح لابد منه، وأن الدنيا ليست بدار نعيم، فإن كنت لابد كادحًا، فاجعل كدحك فيما تحمد عاقبته في الآخرة. وهاهم الكفار على اختلاف مللهم، يلحقهم من الشقاء، والنكد، والكبد، مثل ما يلحقنا أيضا، وأشد، لكن فرقُ ما بين المؤمن والكافر، أن المؤمن يرجو ما عند الله ويحتسب، ويعمل عملا صالحا.

ثم إنه بين أحوال الناس فقال: [فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩] ابتدأ بالصنف الأسعد، والأحظ، وهو من يؤتى كتابه بيمينه، من أهل اليمين، وذلك أن الكتب يوم القيامة تبرز، فآخذ كتابَه بيمينه، وآخذ كتابَه بشماله، من وراء ظهره. وقد ذكر الله تعالى هذا أيضًا في سورة (الحاقة) في قوله: [وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥] {الحاقة:٢٥}.

[فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨] هذا الحساب اليسير، المراد به العرض، وهو الذي دل عليه حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا، كما في الصحيحين « يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عز وجل، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَل تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّى قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِى الدُّنْيَا، وَإِنِّى أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ، وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ

[1] مجموع الفتاوى (٦/٤٢٦).

الْخَلاَئِقِ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ»متفق عليه[1] . وأما المناقشة فأشد منه، ويبين الفرق بين الأمرين حديث عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمعت النبي ﷺ يقول « مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ ». فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: [فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾] ؟ فَقَالَ: « لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ. مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ »متفق عليه[2].

وذلك أن الموحدين على صنفين؛ منهم من سبقت لهم من الله الحسنى، وشاء الله تعالى، أن يغفر ذنوبه، فهذا يعامل بالعرض. ومنهم من عصاة الموحدين، من يدقق معه، ويحقق، وسبق في مشيئة الله أن يُعذَّب بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة، فهذا الذي يعامل بالمناقشة. فمن نوقش عُذِّب، لأنه ما دقق معه في الحساب، إلا لتقوم عليه الحجة التامة، لكن مآله إلى الجنة.

[وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿٩﴾] ينقلب بمعنى يرجع، وأما أهله، أزواجه في الجنة من الحور العين " مسـرورا " أي مغتبطا قرير العين. هذه هي السعادة الحقيقة التي ما بعدها سعادة. إلا سعادة النظر إلى وجه الله الكريم؛ ثم قال في القسم الثاني من التفريع:

[وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾] وقال في سورة (الحاقة) ﴿..بِشِمَالِهِ..﴾ [الحاقة:٢٥] ولا تعارض بين الصورتين، ذلك أن الكافر والعياذ بالله تُغل يمناه إلى عنقه، وتلوى يده اليسرى من وراء ظهره، ويؤتى كتابه بشماله. وفي هذا من البشاعة، والشناعة، ما لا يخفى. وفيه ازدراء له واحتقار.

[فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾]: أي ينادي بالهلاك، والثبور يقول: (وا ثبوراه، وا ثبوراه) أيُّ ثبور أشنع، وأشد، من هذا الثبور؟

[وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾] وورد في قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي ﴿وَيُصَلَّى سَعِيرًا﴾ بضم الياء، وفتح الصاد، وتضعيف اللام. وذلك أنه يدخل في النار حتى تحرقه، وتشويه، والسعير: اسم من أسماء النار، وذلك لتسعرها بالحجارة والناس، [... وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ] {البقرة:٢٤} ثم

---

[1] صحيح البخاري (٤٤٠٨)، صحيح مسلم (٢٧٦٨) واللفظ له.

[2] صحيح البخاري (١٠٣)،صحيح مسلم (٢٨٧٦) واللفظ له.

وصف الله حاله في الدنيا: [إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾]: أي أنه كان في الدنيا مسرورًا، كان فرِحًا، أشِرًا، بطِرًا، لا يبالي، ولا يصدِّق ببعث، ولا جنة، ولا نار .

[إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾]، ظن: أي أيقن. أن لن يحور: أي أن لن يرجع إلى ربه، إذ كان منكِرًا للمعاد.

فرد الله تعالى: [بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾] فالله أخبرُ به، وأبصرُ.

ثم إن الله تعالى قال: [فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾] وكلام المفسرين في معنى (لا): أن يكون معنى النفي: أن الأمر لا يحتاج إلى قسم، فهو من البيان بمكان، أو أن يكون على سبيل الوقف، بتقديرٍ محذوف: يعني ﴿فلا﴾ أي فليس الأمر كما تدعون، ثم ﴿أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾. وإما أن يقال أنها زيادة من باب التأكيد، فهي زائدة لفظًا، لا معنى. والشفق هو الحمرة التي تعقب غروب الشمس. وقال مجاهد في تفسيره، إن الشفق النهار كله[1]، والأول أولى. وإنما قال المراد به النهار كله، ليكون بمقابل [وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ] وقد جاء في حديث أبي مسعود الأنصاري، عندما علَّم جبريل النبيَّ ﷺ وقت صلاة المغرب، قال: (..ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ الأَحْمَرُ..)رواه الطبراني في المعجم[2]، فهو علامة كونية شرعية.

[وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾] الليل: من مغيب الشمس، إلى طلوع الفجر. [وَمَا وَسَقَ﴾: أي ما جمع، وحوى، ولف، ونحو هذه الكلمات، لأن هذه المادة –وسق- تدل على الجمع. ولهذا أطلق على الوعاء الكبير، الوسق، فهو يدل على الجمع والاستيعاب . يقسم الله، سبحانه، بالشفق، ويقسم بالليل، وما جمع الليل، مما يسكن فيه من أنواع الكائنات [وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ] {الأنعام:١٣}.

ولو سرح الإنسان بفكره في هذا، لذهب به الخيال إلى معانٍ لا حصر لها، فيما يجمعه هذا الليل، من أحداث، وموجودات، وتصرفات وغيرها.

---

[1] تفسير مجاهد (١/٧١٥).

[2] معجم الطبراني الكبير (١٧/٢٦٠) ضعيف. فيه أيوب بن عتبة ضعفه ابن المديني ومسلم وجماعة والأكثر على تضعيفه.

[وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾] إذا اتسق: يعني إذا اكتمل، أو إذا استدار، وذلك يكون في الليالي البيض، وهن: ليلة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة، فهو قَسم بالقمر، في أكمل أحواله، حينما يكون بدرا. ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

[لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ] هذا جواب القسم، فاللام وقعت في جواب القسم (لتركبُن)، هذه هي القراءة المشهورة؛ بضم الباء، وأصلها (لَتَرْكَبُونَنَّ) فجرى فيها حذف النون، لتوالي الأمثال، فأصبحت (لَتَرْكَبُونَّ)، وحذفت الواو لاجتماع الساكنين، فصارت (لَتَرْكَبُنَّ). والمخاطب عموم الناس. ووردت بفتح الباء، على قراءة ابن كثير، والكسائي، وخلف، وحمزة، فيكون المخاطب بها، النبي ﷺ.

[طَبَقًا عَن طَبَقٍ] هذا من بلاغة القرآن العجيبة، وجمعه لأنواع المعاني، [طَبَقًا عَن طَبَقٍ] أي حالاً بعد حال، وذلك أن الناس -على القراءة المعروفة (لتركبُن)- تتنوع أحوالهم من الناحية الخِلقية، ومن الناحية القدرية، تنوعا عجيبًا، فإن أحدهم كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم صار جنينًا، ثم أُخرج إلى الأرض رضيعًا، ثم فتى يافعًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا، ثم يموت، ثم يبعث. هذه أطباق متوالية. وقيل [طَبَقًا عَن طَبَقٍ]: أي سماءً بعد سماء، وهذا يتفق مع القراءة الثانية في توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ، وكأن في هذا إشارة إلى ما أكرمه الله تعالى به من العروج إلى السماوات العُلى، ففسرت بأطباق السماء [ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا] {الملك:٣} فسماء فوق سماء.

[فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾] هذا استفهام إنكاري يتضمن التعجيب من حالهم، وكفرهم بالبعث، فكيف لا يؤمنون به، وهم يرون أن الله ، قد نقلهم من طبق إلى طبق، ومن حال إلى حال، فالذي خلقهم من العدم، وأخرجهم من بطون أمهاتهم، حتى تقلبوا في أحوال الدنيا طبقًا عن طبق، قادر على أن يبعثهم. فلهذا جاء التعجيب في مكانه.

[وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾] القرآن كلام الله، الذي تكلم به حقيقة، لا يشبه كلام المخلوقين، ليس هو المعنى دون الصوت، ولا الصوت دون المعنى، بل هو كلام حقيقي من حرف وصوت، لا يكون كلامًا إلا بذلك. لكنه كلام عظيم، شريف، حتى إذا تكلم سبحانه أخذت

السماواتِ من كلامه رجفةٌ، وصعق الملائكة [حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾] {سبأ:٢٣} فينزل به جبريل عليه السلام، إلى قلب محمد ﷺ، ويعتري رسولَ الله ﷺ من الجهد، الشيءُ العظيم، حتى إنه ليتفصد عرقًا في اليوم شديد البرد، وحتى إنه يثقل بدنه، حتى بركت به ناقته ذات مرة، وكانت فخذه مرة، على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض. كل ذلك من شدة الوحي وثِقَله، كما قال تعالى: [إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾] {المزمل:٥} ويشتد أثره على النبي ﷺ، حتى إنه كان يسمع له صلصلة كصلصلة الجرس، حينما ينزل عليه الوحي، ولولا أن الله قواه، ما استطاع أن يتلقى هذا الكلام الثقيل العظيم. وهذه أحد مواضع سجود التلاوة المتفق عليها.

[بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾] الذي يمنعهم من تعظيم القرآن، والسجود للمتكلم به، سبحانه، هو التكذيب، فكونهم يكذبون بالبعث، ويكذبون بالقرآن، ولا يرونه من عند الله ، لا يحصل لهم هذا التعظيم، والإجلال، والخشوع، الذي يحصل لعباد الله المؤمنين، من جنس قول الله : [قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾][الإسراء: ١٠٧-١٠٩] هذان مثالان على اختلاف الاستقبال بين الناس؛ قوم لا يرفعون به رأسًا، ولا يسجدون له إذا أُمروا، وقوم إذا سمعوه خروا سجداً، وعلموا أن هذا القول قول كريم، ليس كسائر كلام الناس، وتجيش قلوبهم وتستجيب جوارحهم ﴿.. عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ ..﴾ -تنزيها له- ﴿.. إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾] فهذا الخشوع نابع من العلم بالله .

[وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾] بما يوعون: أي بما يجمعون من الأعمال، لأن الوعي بمعنى الجمع.

[فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾] الأصل في البِشارة أن تكون للأمور السارة، والنِذارة للأمور الضارة، لكن البِشارة يعبر بها أحيانًا عن الأمور المخوفة، وذلك لأن الأثر يظهر على البَشرة، فسميت البشارة لذلك؛ فإذا سر الإنسان تهلل وجهه، وإذا خاف اصفر وجهه، فالبَشرة مرآة القلب، ويكون التعبير

هنا من باب النِكاية بهم [فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] فجعل البِشارة في موضع النِذارة، تبكيتًا لهم، وليكون أبلغ في وقعه عليهم.

[إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ] استثنى الله تعالى استثناءً منقطعًا، لأنهم أصلاً غير داخلين في ذلك الوعيد، فـ (إلا) هنا بمعنى بل.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع .

فالله تعالى لا يذكر الإيمان إلا ويقرنه بالعمل غالبًا. فمن ادعى إيمانًا بقلبه، ولم يصدقه بعمله، فدعواه كاذبة. إن كان الإيمان حقًا في القلب، فلابد أن يظهر على الجوارح. ولهذا نجد أن بعض الفساق المسرفين على أنفسهم، إذا نُصحوا، ووُعظوا، قال قائلهم: التقوى هاهنا. التقوى هاهنا، يتمثل قول النبي ﷺ في صحيح مسلم"...التَّقْوَى هَا هُنَا"وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)رواه مسلم[1]. فيقال له: لو كانت التقوى في القلب، لظهرت على الجوارح، من اتقى الله تعالى حقًا وصدقًا، عصم لسانه، وجوارحه، عن الوقوع فيما حرم الله ، والله أعلم.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: شدة أهوال يوم القيامة.

الفائدة الثانية: بيان ربوبية الله. فالله تعالى رب السماوات، والأَرَضين، ومن فيهما؛ من مؤمن، وكافر، وبر، وفاجر، وكل ساكن، ومتحرك، ورطب، ويابس، هو خالقُه، ومليكُه، ومدبره، فهذه الربوبية العامة. وأما ربوبية الله لعباده المؤمنين، فإنها ربوبية خاصة، فيها معنى اللطف، والتيسير، والحفظ، ونحو ذلك.

الفائدة الثالثة: إثبات البعث.

الفائدة الرابعة: بيان حال الإنسان في الدنيا، وهو الكدح، والكبَد. فلا ينتظر الإنسان في هذه الدنيا نعيمًا.

الفائدة الخامسة: إثبات الحساب وتنوعه.

الفائدة السادسة: كمال عدل الله ورحمته، فالله حكم عدل، مقسط، لا يظلم مثقال ذرة.

---

[1] صحيح مسلم (٢٥٦٤).

الفائدة السابعة: شؤم عاقبة المنكرين للبعث.

الفائدة الثامنة: إقسام الله بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق إلا أن يقسم بالله .

الفائدة التاسعة: تنوع أحوال الناس في الدنيا، والآخرة.

الفائدة العاشرة: التعجيب من حال المنكِرين للبعث.

الفائدة الحادية عشرة: عظمة القرآن، ووجوب الإيمان به، وأنه كلام الله حقا.

الفائدة الثانية عشرة: سبق علم الله وقدره.

الفائدة الثالثة عشرة: حسن عاقبة المؤمنين.

الفائدة الرابعة عشرة: أن العمل داخل في مسمى الإيمان ومقتضاه .

سورة البروج

هذه السورة العظيمة، سورة ذات موضوع واحد، ولها مقاصد عظيمة، يمكن أن نجملها بثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: بيان منزلة المؤمنين عند ربهم.

المقصد الثاني: الأثر الذي يحدثه الإيمان في العلاقات بين البشر.

المقصد الثالث: تمجيد الرب نفسه، وحكمته في قدره، وشرعه.

[وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾]

[وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾]: السماء هي هذا البناء المحكم العلوي، الذي فوقنا. وهي السقف المرفوع: [وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗا] {الأنبياء:٣٢} ، وما نبصر منها إنما هو السماء الدنيا،سميت بذلك لدنوها من الأرض. وصف الله هذه السماء بأنها [ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ] قيل: إنها النجوم والكواكب، وقيل: إنها القصور السماوية، التي تنزل فيها النجوم، والكواكب كما قال الله ﷻ: [تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾] {الفرقان:٦١} . وأصل هذه الكلمة البروج مأخوذ

من البروز، والظهور. ولهذا سميت القلعة، برجاً، لبروزها وظهورها. ومنه قولهم: تبرجت المرأة، إذا برزت للناس وأظهرت محاسنها. فمن قال إنها القصور، نظر إلى قول الله تعالى [وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ] {النساء:٧٨}، بل إن بعضهم قال: إن في السماء قصوراً تأوي إليها الملائكة. ولكن لا دليل عليه يؤثر فيعتمد عليه. والأقرب، والله أعلم، أن المقصود بالبروج المنازل التي تنزل فيها الكواكب، والأجرام السماوية، وعدتها اثنا عشر برجاً، وهي التي تسميها العرب: الحمل، والثور، والسنبلة، والجدي، والميزان، والعذراء، وهكذا. وقد كانوا يدركون من الأفلاك سبعة، أو ستة، ويجعلون كل نجم، أو كوكب يختص بشيء من هذه الأبراج.

وهذا قسم عظيم، لأن هذا الخلق الهائل، لا يدرك مداه إلا الله، ولهذا قال ربنا في آية أخرى [۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾] {الواقعة:٧٥-٧٦} فمواقع النجوم هي هذه البروج التي تنزل فيها النجوم في أوقات مقدرة.

[وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾]: لا أعلم فيه خلافاً أن المراد به يوم القيامة؛ لأنه يوم وعد الله فيه العباد، أو أوعد به العباد لجمعهم فيه .

[وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾]: (شاهد): قيل إنه يوم الجمعة،(ومشهود): قيل يوم عرفة، فيوم الجمعة شاهد لأنه يشهد لمن حضرها،والمشهود يوم عرفة لأن الناس تشهده. ولكن هذا تفسير للشيء ببعض أنواعه، واللفظ أعم. فإن يوم الجمعة يصلح أن يكون شاهداً ومشهوداً؛ فهو شاهد لمن حضره، ومشهود ممن حضره،كما أن يوم عرفة أيضاً شاهد لمن حضره، ومشهود ممن حضره. فالراجح ما ذهب إليه ابن القيم[1]أن الشاهد، والمشهود، أي المُدْرِك والمُدْرَك، والعالم، والمعلوم، والرائي، والمرئي. فكل ما دل عليه اسم الفاعل، وما دل عليه اسم المفعول، يدخل فيه .

[قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾]: قيل إن هذا هو جواب القسم. يعني قد قتل أصحاب الأخدود. وقيل إن جواب القسم (لتبعثن). والأقرب أن تكون على الظاهر، دون المضمر، فقد قال الله ﷻ: [قُتِلَ أَصْحَٰبُ

---

[1] زاد المعاد (١/٣٩٨).

ٱلْأُخْدُودِ]. ليس هذا القسم لإثبات هذه الحادثة وحسب، فإنها تثبت بمجرد خبر الله ﷻ، وإنما لتفخيمها، وتعظيمها، فإن هذه الحادثة، حادثة عظيمة جداً، جرت في زمن متقدم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى هدى بعض الناس، في بلاد اليمن، فآمنوا بالله، قيل إنهم كانوا من النصارى الموحدين، ثم إن ملك زمانهم، والملأ من قومهم، نقموا عليهم نقمة شديدة، وأرادوا حملهم على الرجوع إلى دينهم، فأبوا، واعتصموا بالله عز وجل، فما كان من قومهم إلا أن خدُّوا لهم الأخاديد في الطرقات، والأخدود هو الشق في الأرض، وأضرموا فيها النار، ثم عرضوهم على النار، وهم قعود على كراسيهم، يتفكهون، ويقولون لأحدهم: إما أن ترجع إلى دينك، ودين أبائك، وأجدادك، وإلا قذفناك فيها. وثبت الله المؤمنين بالقول الثابت، فصاروا يلقونهم في النار، ويستمتعون بمرآهم، وهم يحترقون، ويشمون رائحة شوائهم، ولا يبالون. قيل إن الله تعالى، كان يقبض أرواح المؤمنين، قبل أن يهووا في النار، فلا يجدون حرها. وهذه الحادثة موافقة لما قص النبي ﷺ، من قصة الغلام المؤمن[1].

فخلد الله ذكر هذه الحادثة في كتابه، قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، فيه أسوة، وعبرة لكل المؤمنين، على مر الأزمان، إذا لقوا من أهل الكفر والطغيان أذىً، وفتنة، تذكروا ما جرى لإخوانهم الذين حرقوا في الأخاديد، فأثنى الله عليهم، وزكاهم، ووعدهم، وتوعد مخالفيهم، وعاقبهم العقاب الدنيوي، قبل العقاب الأخروي. ولهذا دعا عليهم، فقال (قتل) يعني لعن.

[ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥]: هذا بدل اشتمال؛ لأن الذي في الأخدود نار تضطرم، فيها الوقود الذي أوقدت به من الحطب وغيره.

[إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦]: يعني أنهم استحقوا اللعنة، والقتل، أشد ما يكون، حال كونهم قعوداً، شاهدين، حاضرين، يتفكهون، ويتلذذون بمرأى المؤمنين وهم يعذبون، ويحترقون. فلهذا آشتد غضب الله عليهم، ونكاله، وبغضه لهم في هذه الدنيا، فوق ما يأتيهم في الآخرة.

---

[1] التي وردت في الصحيح، حتى إن النبي ﷺ حدث ببعض تفاصيلها فقال"... جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِى فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ"رواه مسلم (٣٠٠٥). فألقت بنفسها وولدها في النار.

[وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧]: يعني حالهم أنهم شهود، حضور، شاهدون على أنفسهم، ما فعلوه مكرهين، مضطرين، بل بمحض إرادتهم، وسبق إصرارهم، ليقفوا هذا الموقف.

[وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨]: يعني ما نقم هؤلاء الكفار من المؤمنين، وما أنكروا عليهم شيئاً، من خلق، ولا من سلوك، ولا غيرهما،[إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ]! فلما آمن هؤلاء الموفقون، نقم الملأ عليهم، وغاظهم ذلك، مع إنهم ما تعرضوا لهم، ولا أخذوا مالهم، ولا ضربوا أبشارهم. لكنه الحقد الدفين في قلب الكافر على المؤمن. فبين المؤمن والكافر نفرة شديدة؛ فلا يتواءمان، ولا يتساكنان، ولا يجتمعان. فالإيمان والكفر ندان، نقيضان .

فكل صاحب حق، فارق صاحب باطل، فإن صاحب الباطل يجد في نفسه من التغيظ عليه، والنفرة منه، ما يحمله على أذيته. تجد الإنسان يكون بين طائفة من الغافلين، ثم يلقي الله تعالى في قلبه الإيمان، ويستقيم على الدين، فيتعرض للأذى الحسي، والأذى المعنوي، فينبزونه بالألقاب، ويؤذونه؛ لأنهم يرون أنه تميز عليهم، وارتقى عتبة، ودرجة في السلم، وهم بعد لا يزالون في الحضيض.كذلك المبتدعة مع أهل السنة، حينما يدع الإنسان البدعة، ويلزم السنة، ويقول: لا أعبد الله إلا بما شرع على لسان نبيه ﷺ، ينبزونه بالألقاب السيئة، يريدون أن يردوه إلى حاله. فلهؤلاء سهم، وكفل، من هذه الصفة، فبين أصحاب الأخدود، وبين المبتدعة والفساق، قدر مشترك في هذا الأمر، لمن تأمل وقد نبه على هذا المعنى اللطيف، ابن القيم، رحمه الله[1].

[ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ] ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله الحسنى تنبيه بليغ على أن الله سبحانه وتعالى عزيز، أي قوي، غالب، منيع الجناب، فله عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة المنعة. فلا يظنن ظان أن الله خذل أولياءه، بل هو سبحانه عزيز الجناب، لكن له حكمة بالغة، فإن الآثار المترتبة

---

[1] إغاثة اللهفان (٦٧/١) قال ابن القيم رحمه الله: وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك. وهكذا المبتدع : إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها، فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك، والبدعة خير له، وأنفع وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إذا لم يكن بد من الصبر فاصطبر ... على الحق ذاك الصبر تحمد عقباه .

على هذا الحدث العظيم إلى يوم القيامة، إن تعد لا تحصى. ففيها من العبر،والدروس الإيمانية، ما ينهل منها أهل الإيمان إلى قيام الساعة. وهو سبحانه (حميد) : أي أنه محمود، ففعيل بمعنى محمود، في ذاته، وشرعه، قدره، وما يجريه. فلم يكن ذلك منه عن غفلة، حاشاه، بل هو لحكمة بالغة.

[ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾]: أي أن إيمان هؤلاء القوم بالله ﷻ كان إيماناً عميقاً، مبنياً على دلائل الربوبية، لم يكن إيمانهم إيماناً تقليدياً، أو لمجاراة، أو لطلب ممدحة من الناس، كلا ! بل هو إيمان عميق، راسخ، يستمد مادته من دلائل الربوبية،[ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ] فمن له ملك السموات والأرض، جدير بأن يعبد وحده، لا يشـرك معه أحد سواه. وقد كان ملك زمانهم يأمرهم بعبادة نفسه.

ولهذا احرص يارعاك الله، أن تجعل إيمانك مربوطاً بأشياء ثابتة، لا يكون إيمانك إيماناً سطحياً، عاطفياً، يتعلق بحالة آنية، أو حادثة معينة. اجعل إيمانك مرتبطاً بالثوابت الكونية، بأن الله خالق الأرض والسماء، وتأمل ماقال أصحاب الكهف: [إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ] {الكهف:١٤}، فارفع رأسك إلى قبة السماء! وانظر إلى فجاج الأرض. فليكن تشبثك بدلائل الربوبية الثابتة قوياً.، ولهذا ينتكس بعض من يوصف بأنه استقام، والتزم، وصلح، لأنه استقام استقامة ظاهرية، وتأثر تأثراً آنياً، إثر موقف عاطفي، أو هيجان طارئ، ثم لما زال المؤثر زال الأثر.

[وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾] يعني أن الله سبحانه وتعالى، شاهد، مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فما جرى لهم، لا لهوانهم على الله ﷻ، ولكن لما أعد الله لهم من الكرامة، والفضل، والرفعة في الدنيا والآخرة، وتأمل المقابلة بين وصفه لهم بأنهم [عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ] وو صفه لنفسه بأنه [عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ] ! يتبين لك مدى طغيانهم وحمقهم، ومدى حلمه وعلمه وحكمته سبحانه .

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام الله بآياته الكونية، [وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ]، والشرعية [وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ] يوم عرفة، ويوم الجمعة فهذه مما شرعه الله تعالى.

الفائدة الثانية: تعظيم حادثة الأخدود، وعدم غفلة الرب عما جرى للمؤمنين.

الفائدة الثالثة: شدة عداوة الكافرين للمؤمنين، وغلظتهم عليهم، كما قال ربنا ﷻ: [لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً] {التوبة:١٠} وهذه سمة باقية إلى يوم القيامة.

الفائدة الرابعة: نفرة الكافرين من تميز المؤمنين عليهم، ومفارقتهم إياهم بالإيمان. ويتفرع عن هذه الفائدة: نفرة العصاة من أهل الطاعة، ونفرة المبتدعة من أهل السنة.

الفائدة الخامسة: عمق إيمان المؤمنين، وارتباطه بدلائل الربوبية.

[إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢]

[فَتَنُواْ]: أي عذبوا، وتحديداً: حرقوهم في النار. وهذا موافق لأصل كلمة الفتن في اللغة؛ لأن الفتن في اللغة: إدخال الصائغ الذهب في أتون النار، لينفصل المعدن النقي، من الخبث العالق به. والحقيقة أن الفتنة كذلك ! فالله تعالى يبتلي عباده، لكي يميز الخبيث من الطيب. وحتى تتخلص نفس الطيب من الشوائب، والأخلاق الرديئة. فإن للابتلاء فائدةً، وأثراً، وحكمة. قال تعالى: [الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢] {العنكبوت: ١-٢}.

وفي قوله: [ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ] دلالة على أن هذا جرى للرجال، والنساء، رحمهم الله جميعاً. وتأمل الاحتراز في قوله: [ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ]! يعني أنهم لو تابوا، لقبل الله توبتهم، بعد ما فعلوا ما فعلوا، وهذا يدلك على عظيم حلم الله ﷻ، وواسع فضله، وأن من أذنب ذنباً، أياً بلغ ذلك الذنب، شناعة، وبشاعة، ثم تاب منه، تاب الله عليه، كما قال في الآية الأخرى: [إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ] {الفرقان: ٧٠}! فهذا عجيب جداً من الرب سبحانه وتعالى ! كيف وسع حلمه أن يتوب على هؤلاء لو تابوا !

[فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ]: أما جهنم، فهو اسم من أسماء النار. وقال بعض المفسرين: إن عذاب الحريق المذكور هنا، هي النار التي أحرقوا بها المؤمنين، امتدت إليهم، وأحرقتهم، فهذا هو الحريق الذي نعلمه. وقال بعضهم: توعدهم بالعذاب الأخروي مرة بالاسم، ومرة بالوصف. فجهنم اسم للنار، والحريق وصف له، وبيان لحقيقته. والجزاء من جنس العمل؛ فكما إنهم حرقوا هؤلاء المؤمنين بنار الدنيا، فهم متوعدون بنار تفضل نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وهي نار جهنم. والله

أعلم، و أياً كان الأمر،فإنا نعلم، يقيناً، أن الله سبحانه وتعالى، ما كان ليدعهم. قال الله ﷻ: [إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾] {غافر:٥١}. إذاً هناك نصر دنيوي، قبل النصر الأخروي؛ فيقيض الله من أقداره، ما ينتقم به من هؤلاء الطغاة. ومن تتبع التاريخ، وقرأ سير المؤمنين؛ أفرادًا، وجماعات، وما نالهم من أذى، وعذاب، يجد أن الله تعالى لم يدع من ظلمهم، بل عجل له بعقوبة دنيوية، قبل العقوبة الأخروية، إحقاقاً للحق، ونصـرة للمؤمنين.

[إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ] {البروج:١١}: ومن أول الناس دخولاً في هذا الوعد الكريم، هؤلاء المعذبون، الذين حرقوا بالنار، وألقوا في الأخاديد، وإلا فإن الآية تشمل كل مؤمن. ومعنى (جنات) أي بساتين؛ وسمي البستان جنة، لأنه يُجِنُّ صاحبه، أي: يستره، بكثرة أشجاره، والتفاف أغصانه. [تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ]: أنهار اللبن، وأنهار الماء، وأنهار العسل، وأنهار الخمر، وفرةً، وكثرةً. هذا بعض ما وعد الله أولياءه من الكرامة. [ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ] والفوز: هو الفلاح. وحسبك بما وصفه الله كبيراً فهو كبير حقاً .

[إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾]: البطش: هو شدة العقوبة، والأخذ. عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول اللهِ ﷺ : (إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) قَالَ ثُمَّ قَرَأَ:[وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾] {هود:١٠٢})متفق عليه[1]. فإذا رأى الإنسان من نفسه، أنه مقيم على معاصي الله، وأن الله قد تركه، فليعلم أن ذلك استدراج، فلا يغرنه ذلك. وهؤلاء الظلمة الذين يظلمون الناس، ويبغون عليهم، وإن بدوا مطمئنين، وإن بدوا ممكنين، وإن بدوا متفكهين، فإن لهم يوماً لا يدعهم الله تعالى فيه. وأفعال الله ﷻ في الظالمين معروفة، وأيامه في أعدائه معلومة، سبحانه وبحمده.

[إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾] هذه الجمل المتتابعة، المؤكدة بـ(إن) الثقيلة، تحفر في القلب، وترسخ في العقل معانيها. وهذا يعطي المؤمن الثقة والرسوخ. ومعنى [يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ] قيل العموم، أي: يبدئ الخلق

---

[1] صحيح البخاري (٤٦٨٦)، صحيح مسلم(٢٥٨٣).

ويعيده، كما قال سبحانه: [وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ] {الروم:٢٧}، وقيل إن المراد يبدئ العذاب، ويعيده عليهم خاصة. وهذا أليق بالسياق، وإليه ذهب ابن جرير، رحمه الله[1]، ولهذا قال الله عن أهل النار: [إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾] {النساء:٥٦}.

[وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾] وهذا أيضاً مما يؤيد أن قوله: (يبدئ ويعيد) يختص بالعذاب، والعقوبة؛ لأنه ذكر المغفرة، والوداد، بعدها. فتلك في جانب الكفرة من أصحاب الأخدود، وهذا في جانب المؤمنين.

[وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾]: هذان اسمان كريمان، من أسماء الله الحسنى، فالله تعالى: غفور، وغافر، وغفور: يسميها أهل العربية صيغة مبالغة، أي: كثير الغفر، والغفر: هو الستر، والتجاوز. ومنه سمي المغفر الذي يجعل على الرأس، لأنه يتحقق به أمران: الستر، فتستر ما تحتها، والوقاية، فهي تقي الرأس من الصدمات، والكدمات. فمن شأن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين، أن يستر ذنوبهم، ويغفرها لهم، كما في حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ اللهَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ)رواه البخاري[2].

و(الودود) : من أسماء الله الحسنى، وهو أيضاً على صيغة المبالغة الدالة على كثرة الود، وعظمه، فهو واد، وودود. والمودة: أعلى درجات المحبة. ولهذا فسر بعض السلف الودود: بالحبيب. والواقع أن هذه اللفظة "الودود"، تدل على معنيين: على أنه وادٌّ، وعلى أنه مودود، فهو يود أوليائه المؤمنين، ويوده أولياؤه المؤمنون. ومصداق هذا قوله تعالى: [يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ] {المائدة:٥٤}.

---

[1] تفسير الطبري (٢٤/٢٨٣).

[2] صحيح البخاري (٢٤٤١) .

[ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥]: (ذو) أي صاحب، والعرش أكبر المخلوقات، وأعظمها وأعلاها، وهو سقف العالم. وفي اللغة: سرير الملك الذي يجلس عليه[1]، وعرش الرحمن، سبحانه وبحمده، سرير، ذو قوائم، تحمله الملائكة، كما قال الله ﷻ: [وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧] {الحاقة:١٧} . ولا يصح تفسير العرش بأنه المُلك، أو أنه كناية عن الملك، فهذا تأويل متعسف، تأباه صراحة نصوص الكتاب، والسنة، ولغة العرب، فلا يمكن أن نفسر العرش بهذا، ولا يستقيم أن يقال: يحمل ملك ربك ثمانية ! بل هو عرش حقيقي، ولهذا قال النبي الله ﷺ في حديث الشفاعة: (فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي)متفق عليه[2]. وقال في حديث آخر: (فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ)متفق عليه[3]. فهذا يدل على أن العرش خلق عظيم، جداً، يستوي عليه الرب سبحانه وبحمده. فإذا أخبر الرب تعالى عن نفسه، بأنه ذو العرش، فليس معناه بأنه صاحب العرش، فقط ! بل فيه ما يدل على معنىً آخر، وهو الاستواء. وقد نبه إلى هذا المعنى الشيخ عبد الرزاق عفيفي، رحمه الله، وإلا فإن الله له الملك كله، ولا يختص العرش في كون الله مالكه، وخالقه. وإنما يختص بأنه سبحانه يستوي عليه، كما ذكر ذلك في سبعة مواضع في كتابه.

ومعنى (المجيد): الكريم، وهو وصف لله، ولهذا ضبطت بالضم في المصحف باعتبارها صفة لمرفوع، وهو: (ذو)، فمن أسمائه الحسنى المجيد، يعني الممجد سبحانه. وثم قراءة أخرى بالخفض، فحينئذ تصبح صفة للعرش، فيكون العرش أيضاً موصوفاً بالمجد، والكرم الذي يليق بالمخلوق،كما أن المجد، والكرم، الذي وُصف الله به يليق به. ولا مانع أن يطلق الوصف على الخالق وعلى المخلوق، على اعتبار أن ما للخالق يليق به، وما للمخلوق يليق به.

[فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦]: هذه جملة وصفية أخرى للرب سبحانه وبحمده، (فعال) يعني كثير الفعل، فإن أفعاله سبحانه وبحمده لم تزل، ولا تزال؛ لأن الفعل علامة الحي، فكل حي فاعل. والله تعالى حي فعال، لم يزل فعالاً، وقوله: (لما يريد) أي أن فعله سبحانه، مقترن بإرادته، وحكمته. فلا يفعل شيئاً

---

[1] انظر: لسان العرب، تاج العروس (مادة عرش) .

[2] صحيح البخاري (٤٤٣٥)، صحيح مسلم (١٩٤).

[3] صحيح البخاري (٢٢٨٠)، صحيح مسلم (٢٣٧٣).

عبثاً، ولا يفعل شيئاً دون إرادة مسبقة. وله سبحانه نوعان من الإرادة: إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية شرعية. والأليق في هذا السياق أن تكون الإرادة هنا الكونية القدرية؛ لأنه قرنها بالفعل، ولو كانت الشرعية، لقرنها بالقول. فهو سبحانه وتعالى يريد ويفعل، والناس يريد أحدهم، وقد لا يتمكن من الفعل. أما الرب سبحانه وبحمده، فإنه مريد، وفعال، بخلاف الآدمي، أو المخلوق، فإنه قد يكون مريداً، ولا يكون فعالاً، وقد يصدر منه فعل دون إرادة. قال تعالى: [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾] {النحل:٤٠} .

[هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾] (هل أتاك) أي يا محمد،(حديث) يعني خبر،(الجنود) يعني جنود الشر، والطغيان، والكفر.

[فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾]: فرعون أشهر من عرف بالكفر من بني آدم. والمراد هنا فرعون وملؤه؛ لأنهم لا يكونون جنوداً إلا بهذا المعنى، فإن فرعون شخص واحد. وثمود: قبيلة متجبرة، متغطرسة، كانت تسكن في وادي القرى، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، ويتخذون من سهولها قصوراً، لفرط تجبرهم، وقوتهم، وترفههم.

[بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾] (بل) : هذه للإضراب، يعني: ليس الأمر أنك تكذب عليهم، بل هم في تكذيب. وهذا التعبير يشعر بأنهم غارقون، منغمسون في الكذب، والتكذيب. وهو أبلغ من قول: إنهم يكذبون، فكأن الكذب، والتكذيب، ظرف لهم، محيط بهم من جميع الجهات.

[وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾]: ما أعظم هذه الجملة وما أشد وقعها على الظالمين، والكافرين، والمنكرين للبعث، والمعادين لرسل الله المحاربين لدينه!

[مُّحِيطٌۢ]: المحيط اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يعني المطلع، المتمكن منهم، فلا يعجزونه. قد أحاط بهم زماناً، ومكاناً؛ أما زماناً: فقد قال الله: [هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ] {الحديد:٣}، وأما مكاناً: فقال [وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ]. وقد فسره النبي ﷺ فقال " ... اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ

فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ ..." رواه مسلم[1] فأين المفر؟ إن ظنوا أنهم بإحراقهم هؤلاء المؤمنين بالنار، وأنهم لم يجدوا ناصراً لهم من الناس، فأين المفر من الله ﷻ ؟

[بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾]: هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ، كريم، شريف. وهذا أحد أوصاف القرآن العظيم.

[فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾]: قال بعض العلماء: أي أن القرآن مذكور في اللوح المحفوظ، وقال آخرون: بل القرآن بأكمله مسطور في اللوح المحفوظ. أما قول الله تعالى: [وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾] {الشعراء:١٩٦} فالمراد ذكر القرآن، وحسب. أما كونه في اللوح المحفوظ فهذا يحتمل المعنيين. وقد كان شيخنا، ابن عثيمين، رحمه الله، بادئ الأمر يرى أن المراد: ذكره، وخبره في اللوح المحفوظ. ثم رجع عن ذلك، ومال إلى أن القرآن بكامله في اللوح المحفوظ. ولعل الحامل على القول الأول، المانع من القول الثاني، هو أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بالقرآن حال تنزيله، فكيف يكون إذاً في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء، قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؟

ويمكن أن يجاب عن ذلك، بأن كونه في اللوح المحفوظ مكتوباً، لا ينافي أن يتكلم الله تعالى به حسب الأحوال، والوقائع. فإن الخطيب، مثلاً، قد يكتب الخطبة، ولا يتكلم بها إلا في أوانها. ولله المثل الأعلى.

[مَّحْفُوظٍ]: أي مصون من الشياطين أن يصلوا إليه، ومن أن يطلع عليه أحد، ومصون من التحريف. واللوح المحفوظ هو أم الكتاب. و(محفوظ) صفة للوح، وهي مشكولة في المصحف بالجر. على أنه قد ورد قراءة بالضم، فتكون حينئذ صفة للقرآن.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: انتصار الله للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

الفائدة الثانية: أن الله يمهل، ولا يهمل.

---

[1] صحيح مسلم (٧٠٦٤).

الفائدة الثالثة: شدة بطش الله وأخذه لأعدائه.

الفائدة الرابعة: اقتران العمل بالإيمان.

الفائدة الخامسة: سنة الله الكونية في البدء، والإعادة، [إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾] . وهذا خير من قول بعضهم "التاريخ يعيد نفسه" ! وهي وافدة من الثقافات الغربية، وفيها إسناد الأفعال إلى غير الله ﷻ .

الفائدة السادسة: إثبات جملة من الأسماء الحسنى: مثل: (العزيز)، (الحميد)،(الغفور)،(الودود)،(المجيد)،(المحيط)، وما تضمنته من صفات .

الفائدة السابعة: إثبات العرش، وأنه خلق حقيقي.

الفائدة الثامنة: أن أفعال الله تعالى لم تزل ولا تزال، وإثبات صفاته الفعلية، والرد على منكري الصفات الفعلية، وإبطال شبهتهم القديمة، وهي أن إثبات الصفات الفعلية، يستلزم أن يكون محلاً للحوادث ! وبيان ذلك، أن يقال : إن جنس الفعل قديم، جنس الفعل صفة ذاتية، لازمة لذاته سبحانه. بدليل قوله [فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾]، لكن آحاده، وأفراده، تتكرر، وتحدث، كما صرح في قوله: [مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾] {الأنبياء:٢} ، وقوله: [وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾] {الشعراء:٥} فهو لم يز ل متكلما فعالاً، لكن صورة هذا الفعل تكون تارة بالمجيء، وتارة بالاستواء، وتارة بالضحك، وتارة بالعجب،وتارة بالنزول.

الفائدة التاسعة: إثبات إرادة الله.

الفائدة العاشرة: استغراق الكافرين في الكذب، حتى صار سجية لهم.

الفائدة الحادية عشرة: إحاطة الله بهم.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات القرآن، ومجده .

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات اللوح وحفظه .

سورة الطارق

هذه السورة، سورة (الطارق) سميت بهذا الاسم، لورود لفظ (الطارق) في مستهلها. وهي ذات مقاصد عقدية متعددة :

المقصد الأول: الإيمان بالبعث.

المقصد الثاني: الإيمان بالملائكة.

المقصد الثالث: الإيمان بالقرآن.

[وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾]

[وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾]:استهل الله تعالى هذه السورة بالقسم، كما قال في أختها [وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾] {البروج:١}. والسماء خلق عظيم، وصفها فيما مضى بأنها(ذات البروج). وهاهنا قرن ذكرهاب(الطارق). والطرق في اللغة: الإتيان ليلاً. يقال: "طرق الرجل أهله" يعني أتاهم ليلاً. وفي الحديث: نَهَى النَّبِيُّ ﷺأَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ لَيْلاً) متفق عليه[1]. فقد أقسم الله تعالى بالسماء، وما يطرق فيها، أي ما يأتي ليلاً، والذي يأتي ليلاً أمورٌ كثيرة، منها: ما فسر الله تعالى به هذه اللفظة، فقال: [وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾]، لأنه يأتي ليلاً. وهذا قسم عظيم؛ لأن السماء عظيمة، وما خلق الله تعالى فيها عظيم!.

كما قال: [فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ] {الواقعة:٧٥-٧٦}.

[وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾]: ما أعلمك. وهذا الاستفهام إما أن يكون للتعظيم، وإما أن يكون للتشويق، أو لهما معاً وهذا أولى، أن يكون للتعظيم كما قال الله تعالى: [ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾] {الحاقة:١-٣}، [ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ] {القارعة:١-٣}. وقد يكون للتشويق، لكي يتهيأ الذهن لسماع الجواب، لاسيما أن الجواب حاضر.

---

[1] صحيح البخاري (١٧٠٦)، صحيح مسلم(١٩٢٨).

[ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ]: هو كل كوكب مضيء متقد؛ وصفه بقوله: (الثاقب) لأنه يثقب الظلام بضوئه، فإذا نظرت إلى قبة السماء، في الليلة الظلماء، تجد أن هذه النجوم المتلألئة، أشبه بالثقوب، في هذه القبة السوداء. فلأنه ثقب ظلام السماء، سمي ثاقباً. وقيل: أن هذا الوصف يختص بنجم الثريا فقط ؛ وذلك لشدة لمعانها وتوهجها. والثريا: نجم معروف في السماء، بل هو في الحقيقة مجموعة نجوم ، أشبه ما تكون بعنقود العنب، مجتمع بعضها إلى بعض.

[إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾]: (إن) مخففة من الثقيلة، اسمها محذوف تقديره "إنه"، وهي تفيد النفي.

[لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ]: هذه هي القراءة المشهورة (لّما) بالتشديد، وهي بمعنى (إلاَّ). فيكون المعنى: ما من نفس إلا عليها حافظ. وجملة: [إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾] جواب القسم. و(نفس) : نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم. والمقصود بالنفس: جنس نفوس بني آدم. وقرأت بالتخفيف: (لَمَا) وعلى هذا تكون "ما" مزيدة. والحافظ: هو الملك الذي يحفظ على تلك النفس أعمالها، من خير، أو شر، كما في قوله: [وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾] {الانفطار:١٠-١١}. ويمكن القول إنه الملك الذي يحفظها، كما قال ربنا ﷻ: [لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ] {الرعد:١١} . فهؤلاء المعقبات، هم من ملائكة الرحمن، يحفظون الإنسان عما أراد الله تعالى أن يحفظه منه، فإذا جاء قدر الله، خلو بينه وبينه. فالحفظ يتناول حفظ الأعمال؛ بمعنى كتابتها، وضبطها، ويتناول أيضاً حفظ الإنسان من أن يقع عليه الأذى.

[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾]: (فلينظر): يحتمل أن يكون النظر الحسي؛ لأن المطلوب النظر إليه ممكن، وهو هذا المني الذي منه خلق. لكن الأقرب والله أعلم، أنه النظر العلمي، بمعنى: فليتأمل ويعتبر؛ لأن المنظور إليه معهود في الأذهان، لا يحتاج أن يذهب ليبصره، وهو الماء الدافق. [مِمَّ خُلِقَ]: يعني من أي شيء خلق. وهذا شروع في إقامة الحجة على منكري البعث. ويمكن أن نفسر "الإنسان" في هذا الموضع بأنه المنكر للبعث، وإن كان يصلح المقام للاعتبار لكل أحد. فإن المؤمن لو تأمل في أصل خلقه لزاد بذلك إيماناً.

إنها مسافة هائلة بين هذه النطفة المذرة، التي لا تكاد ترى إلا بالمجاهر المكبرة، وبين الإنسان الكامل الخلقة! يتحول الحيوان المنوي، بعد أن يلقح البويضة الأنثوية، إلى خلية مخصبة، ثم تشرع هذه الخلية بالانقسام المتتالي، حتى تصبح نطفة، فعلقة، فمضغة، ثم يخلق الله عظاماً، ويكسو العظام لحماً. ويترقى هذا الخلق العجيب، حتى يخرج كائناً يدب على وجه الأرض! لا ريب أن هذا من دواعي زيادة الإيمان. فلهذا يصلح أن يكون الخطاب موجهاً للإنسان الكافر، المنكر للبعث، لإقامة الحجة عليه في إثبات البعث. ويصلح أن يكون دعوة عامة للتفكر في عظيم خلق الله عزﷻ.

فَلْيَنْظُرِ الإنسان الكافر المنكر للبعث الذي كان النبي ﷺ يواجهه في مكة، من كفار قريش، [مِمَّ خُلِقَ]؟ يأتي الجواب مباشراً، لأن الجواب محل تسليم من الجميع، لا أحد ينكره: [خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾] وهم مقرُّون أن الله تعالى خالقه. والماء الدافق هو المني. وسمي دافقاً لكونه ذا اندفاق، واندفاع. وهذا مما يميز هذا الماء العجيب، أنه يخرج دفقاً بلذة ، ليبلغ محله في الأرحام .

[يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾]: الصلب: على قول جمهور المفسرين، هو فقار الرجل، يعني عموده الفقري، أي ظهره. والترائب: على قول جمهور المفسرين، هي عظام الصدر من المرأة. و عبر بعضهم بأنها موضع القلادة. فدلت الآية على أنه يخرج من بينهما، ولا يلزم من هذا أن يكون خارجاً من ذات العظم، عظم الظهر، أو أضلاع الصدر. وذهب بعض المفسرين إلى أن الترائب هي أطراف الرجل، يعني يديه ورجليه ولا تتعلق بالمرأة، لأن الماء إنما يخرج دفقاً من الرجل. فكأن هذا الماء الذي يخرج من الرجل يستل من جميع جسمه؛ من فقاره، وأطرافه، ولا شك أن العلم الحديث قد يساعد في إيضاح هذا المعنى، وقد لا يبلغ العلم الحديث التفاصيل الدقيقة في دلالة الآية، لكن المعلوم لدى المشتغلين بعلم وظائف الأعضاء، المسمى بـ(الفسيولوجي) أن هذا الماء يتكون في الخصيتين، ثم يتجمع في موضع معين. وأما الأنثى فإنه يتكون ماؤها في المبيضين، فيتم إنضاج البويضة، فتنزل من مبايض المرأة إلى الرحم، عبر قناة (فالوب)، مرة في الشهر. ومن حكيم صنع الله ﷻ ، أن جدار الرحم يتهيأ بإذن الله تعالى لاستقبال الحمل المتوقع، فتهبط هذه البويضة، وقد امتلأ جدار الرحم بالشعيرات الدموية، وصار ثخيناً مشبعاً بالغذاء، فإن قدر خلال ثمان وأربعين ساعة أن يقع لقاء بين

الزوجين، ويلتقي ماء الرجل الذي يحمل الحيوانات المنوية، مع البويضة، في رحم الأنثى، فإنه يسبق واحد من هذه الحيوانات المنوية إلى البويضة، فيقع التلقيح. فتنغرس تلك البويضة الملقحة في جدار الرحم، وتتغذى على ما اختزن في هذا الجدار من الأوعية الدموية، وتتوالى الانقسامات الخلوية، حتى تكبر، وتعلق في جدار الرحم، فتسمى علقة، ثم تمر ببقية المراحل، كما هو معروف في علم الأجنة. كل هذا بتقدير دقيق، وحكمة بالغة. ومن العجيب أن هذه البويضة، تحمل المورثات الجينية، من الأنثى كما إن الحيوان المنوي يحمل المورثات الجينية من الذكر. ومعلوم أن كل خلية بشرية تحتوي ستة وأربعين مورِّثاً "جين"، إلا الخلية المنوية، فإنها تحتوي نصف العدد، فقط. فينحدر من المبايض بويضة تحمل ثلاثة وعشرين مورثاً، ويقذف الذكر حيواناً منوياَ يحمل ثلاثة وعشرين مورِّثاً، فيصبح المجموع ست وأربعون. هذه الخلية الجديدة، هي (الأمشاج) كما قال ربنا ﷻ: [إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾] {الإنسان:٢} والأمشاج تعني الأخلاط، لكونها خليطاً من ماء المرأة ماء الرجل، فيقع الشبه كما يريد الله ﷻ.

هذه العملية التي يلفت الله الانتباه إليها لا يبصرها الغافلون. إن الناظر بعين البصيرة، ولو كان عامياً، أمياً، لا يقرأ، ولا يكتب، لو أمعن النظر، لاعتبر في هذا الماء الذي يقذف في الأرحام، كيف يؤول إلى إنسان سوي، حي، سميع، بصير. هذه المسافة بين هذا الماء الذي تشمئز منه النفوس، وهذا الخلق الإنساني السوي، من دواعي النظر، الذي يوجب للإنسان إجلال الخالق، وطأطأة الرأس خضعاناً له سبحانه وبحمده. ثم لا ينقضي العجب كيف ينكر هذا الإنسان البعث! أبعد هذا المشهد العجيب، يا معشر المشركين، تقولون: [مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾] {يس:٧٨} .

[إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾]: يعني الذي خلق هذا الإنسان، وكونه على هذه الصفة قادر أن يعيد خلقه مرة أخرى يوم القيامة. فهذا من أعظم دلائل البعث،ومرجع الضمير في قوله [إِنَّهُۥ] إلى الرب سبحانه وتعالى،ومرجع الضمير في قوله: (عَلَى رَجْعِهِ) إلى الإنسان. هذا هو الأقرب. وقال بعض المفسرين: أن مرجع الضمير في قوله: [إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ] أي إلى الماء، فيكون معنى [لَقَادِرٌ]: أنه قادر أن يعيد الماء إلى الموضع الذي خرج منه. يعني قادر أن يعيده إلى الإحليل، أو يعيده إلى الصلب، والترائب. ولا شك

أن الله تعالى قادر على ذلك، لكن سياق الآيات يؤيد القول الأول، وهذا ما رجحه ابن جرير رحمه الله[1]، لأن المقام مقام إثبات البعث، ولأن هذا الأمر، مما لم يوقعه الله ﷻ، وهو إعادة هذا الماء في الإحليل، أو إلى الصلب أو الترائب. فلا وجه للإتيان بالجملة المؤكدة هاهنا.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: إقسام الله تعالى بمخلوقاته. [وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١].

الفائدة الثانية: كمال رقابة الله، وحفظه لبني آدم .

الفائدة الثالثة: إثبات الملائكة الكرام، وبيان بعض أعمالهم، كالحفظ .

الفائدة الرابعة: بيان دليل من دلائل البعث، وهو أن القادر على الخلق قادر على الإعادة. كما قال الله تعالى: [وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ] {الروم:٢٧} فهو دليل عقلي، وحسي، على إمكانية البعث.

---

[1] تفسير الطبري (٢٤/٢٩٧-٢٩٨) .

[يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾]

[يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ] :(يَوْمَ) ظرف، متعلقه بالرجع، يعني إن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادة بعثه [يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ] يوم القيامة؛ لأنه هو الذي تبلى فيه السرائر. ومعنى [تُبْلَى] أي تختبر، وتكشف. [ٱلسَّرَآئِرُ]: الضمائر، جمع سريرة، وهي كل ما أسره الإنسان، وأخفاه. وهذا فيه وصف بديع، وصف باطني ليوم القيامة! فمعظم أوصاف يوم القيامة تتعلق بالصورة الظاهرة، مثل: [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ] {التكوير:١}، و[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ] {الانفطار:١}، ونحوها مما يتعلق برسم الصورة الكونية الظاهرة، أما هذه الآية فإنها ترسم الصورة الباطنة، وهو ما يكون عليه حال القلوب، فتنكشف، فلا مجال للتزويق، ولا للنفاق، هم ضاحون لله ﷻ، ظاهراً، وباطناً؛ ضاحون لله ظاهراً، لا ثياب تسترهم، وهم ضاحون لله باطناً، فكل شيء بيِّن مكشوف.

[فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾]: [فَمَا لَهُۥ]: أي الإنسان، [مِن قُوَّةٍ]: يعني من قوة ذاتية يمتنع بها، [وَلَا نَاصِرٍ]: يعني من قوة خارجية، فليس له معين، ولا مدافع. فالفرق بين دلالتي هاتين اللفظتين: (قُوَّةٍ) وَ (نَاصِرٍ) أن القوة ذاتية، والنصر خارجي.

[وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾]: أعاد الله تعالى القسم بالسماء، ولكنه هذه المرة بوصف جديد. (ذَاتِ الرَّجْعِ) والمراد بالرجع: المطر. وسمي المطر رجعاً، لأنه يرجع، ويعود مرة إثر مرة، وإنما أضاف الله تعالى الرجع إلى السماء لكونه يأتي من جهتها. وكل ما علاك فهو سماء. وقيل إن المقصود بالرجع: الشمس، والقمر، والنجوم، لأنها تشرق، وتغرب، ثم تعود. فوصفت بالرجع. والأول أقرب، وهو ما عليه جمهور المفسرين.

[وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ]: هذا من التقابل، فبينا الإنسان يرفع طرفه إلى السماء، إذ به يحطه إلى الأرض. فكل ما حولك دلائل ربوبية؛ ترفع رأسك، تلتفت يميناً، وشمالاً، كل ما في الكون هو من دلائل البعث، ودلائل الربوبية.

[وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾] الصدع: يعني الشق. لأن الأرض تتشقق بالنبات، كما في قوله تعالى [فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا] {عبس:٢٤-٢٧} إلى آخر الآيات. وهذا القسم مناسب لموضوع السورة، فالسورة تتضمن تقرير أمر البعث، وإقامة الأدلة عليه، فأقسم بالسماء بوصفها [ذَاتِ ٱلرَّجْعِ]، والأرض بوصفها [ذَاتِ ٱلصَّدْعِ]، وهذا إلماحة إلى دليل آخر من دلائل البعث، وهو أن الله سبحانه وتعالى، يحيي الأرض الميتة، فيسوق إليها الماء، فتنبت العشب والكلأ الكثير: [وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا] {يس:٣٣}. فالذي يحيي الأرض الميتة، قادر على إحياء بني آدم، وإخراجهم من قبورهم أحياء. ولما ذكر الله ﷻ في سورة "ق" قوله: [وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا] [ق:٩-١١] قال إثرها [كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ] ! فالذي يحيي الأرض الميتة بهذا الماء المساق من البحار، فتنبت، وتصبح ذات مروج، ونخيل باسقات، قادر على إخراج الإنسان حياً بعد موته.

[إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾]: مرجع الضمير إلى القرآن، وهو إن لم يرد له ذكر، لكنه لما قال: (قَوْلٌ) علم أنه القرآن. ومعنى (فَصْلٌ) أي فيصل، وفرقان بين الحق والباطل، وهدى،وضياء، ونور،وشفاء، كل هذه الأوصاف تنطبق انطباقاً تاماً على كلام الله ﷻ. ولهذا قال الله: [إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾] {النمل:٧٦} ، وقال: [الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ] {هود:١}.

[وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ]: إذاً هو جد كله، ليس لعباً، ولا باطلاً، وليس المقصود به المسامرة، والتلذذ به كما يتلذذ بالشعر، وإنما هو جد،وحق، وموعظة،وهدى،وبيان،وشفاء، فخذوا الأمر بجد، فهذا الذي يتلى عليكم ليس أساطير الأولين، ليس شعراً، ليس سجعاً، ليس كلام كهان، بل هو حق يوجب عليكم أن ترعوه أسماعكم، وأن تعتقدوه بقلوبكم، وأن تقيموا حياتكم وفق هديه. إن الذي يمتلأ قلبه بهذا المعنى، يرزق بركة القرآن، فكل أمر اشتبه عليك من أمورك الخاصة، أو أمور الناس العامة، إذا أقبلت على القرآن بقلب صادق، ونفس مستشرفة، تعتقد أن الهدى، والشفا، والبيان هو في هذا الكتاب فوا الله، لتجدن فيه بغيتك، وطلبتك. لكن إذا حرم الإنسان هذا الاعتقاد، وهذا اليقين،

حرم الثمرة. فليعوّد الإنسان نفسه على أن يعظم القرآن، ويعتقد أنه كلام رب العالمين، ليس كأي كلام، وأن كل ما يحتاج الناس إليه في معاشهم، ومعادهم، فهو في كتاب الله ﷻ، في كتاب الله جوابه، وشفاؤه، لا يلزم من ذلك أن يكون فيه ذكر التفاصيل لكن فيه ذكر الأسس،والمبادئ،والمفاتيح التي تقود الإنسان إلى معرفة الحق، وتحصيل الطمأنينة.

[إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾]: أي هؤلاء المنكرون للبعث يتحايلون، ويدبرون بطريق خفي إيصال الأذى إلى النبي ﷺوالمؤمنين. وحقيقة الكيد، والمكر، والمحْل: إيصال الأذى بطريق خفي. وأكدها بالمفعول المطلق (كيداً) لأن الكافرين يستفرغون جهدهم، ووسعهم، في الصد عن سبيل الله، ورسم الخطط لذلك. ولم يزل هذا دأبهم قديماً وحديثاً. وهذه سمة وصفة في كل منكر للبعث، أنه لابد أن يفني عمره، وجهده في إحقاق الباطل، وإبطال الحق، فالمنكر للبعث يريد أن يقنع نفسه، ويقنع الآخرين بصحة ما هو عليه، فلذلك يؤلب، ويجتهد، ويضلل، لكي يحاول إقناع نفسه، ومعاكسة فطرته، ومحاولة إضلال الآخرين، ويا له من عبث ضائع، وجهد غبين، إذ أنه مبني على باطل، ولا يفضي إلا إلى باطل.

[وَأَكِيدُ كَيْدًا]: وشتان بين كيد الرب وكيد العبد؛ الكيد في حقيقته المشتركة، ومعناه الكلي، واحد، وهو إيصال الأذى بطريق خفي، لكنه من الله محمود، ومن هؤلاء الكافرين مذموم؛ لأنهم أرادوا بكيدهم إبطال الحق، وإحقاق الباطل.ولهذا يخادعون الناس بأنواع الخداع، فعن عروة بن الزبير ﷺ قَالَ:"لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ إِنَّ النَّاسَ يُحَاسَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَمَبْعُوثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا، فَعَمَدَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ إِلَى عَظْمٍ حَائِلٍ قَدْ نَخَرَ فَفَتَّهُ، ثُمَّ ذَرَاهُ فِي الرِّيحِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا بَلِيتُ عِظَامُنَا، إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟ فَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنِ اسْتِقْبَالِهِ إِيَّاهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالْأَذَى فِي وَجْهِهِ وَجْدًا شَدِيدًا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ : " قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ "([1]) وهذا المشهد يمكن أن يجتاح أصحاب العقول السطحية، فتنطلي عليهم مثل هذه المكائد.

[1] تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٠٣/١٠) وقال آخرون بل عني به العاص بن وائل السهمي – انظر تفسير الطبري (٤٨٦/١٩).

وهذا الكيد، منه سبحانه، في مقابلة كيد الكائدين، نظير قوله: [وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ {الأنفال:٣٠}. ولما كان الكيد، والمكر، وأمثالهما، تنقسم مدلولاتها إلى محمود، ومذموم، لم يجز إطلاق هذا الوصف عليه إلا مقيداً، على سبيل المقابلة. ولم يجز اشتقاق اسم له منها، فلا يقال من أسمائه الكائد، ولا من أسمائه الماكر، ولا يُخبر به عن الله على سبيل الإطلاق، إلا أن يقيد، فيقال الكائد بالكافرين، الماكر بالماكرين، ونحو ذلك.

[فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾]:"مهل": أي أنظر، واترك. وهذا من التنويع في التعبير، (رُوَيْدًا) كلمة مصغرة من (رودى) ومعناها: أي قليلاً، فالأمر قريب، عما قليل يتبين الحق من الباطل، وتعرف العاقبة لمن. ولهذا لم يمض عليهم سنيات حتى أذلهم الله يوم بدر، وألقوا في القليب، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال "هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا"رواه البخاري[1]. [أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا] أمهلهم حتى تحقق الموعود.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: صفة يوم القيامة الباطنة [يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾].

الفائدة الثانية: كمال إحاطة الله بالعباد، وكمال ضعفهم، فلا قوة لهم من ذواتهم، ولا ناصر لهم من سواهم.

الفائدة الثالثة: عظم شأن القرآن،وبيان صفته الفاصلة، الجادة.

الفائدة الرابعة: فصل القرآن العظيم في جميع الأمور المشتبهات، فما من أمر مشتبه يطرأ على الناس، إلا وفي القرآن منه خبر، وشفاء، عرفه من عرفه، وجهله من جهله

الفائدة الخامسة: سعي الكافرين المنكرين للبعث بالباطل.

الفائدة السادسة: إثبات صفة الكيد لله ﷻ، وهو من صفاته الفعلية.

الفائدة السابعة: أن الله يمهل، ولا يهمل. فلا يغرنك ما ترى من انتفاش الباطل، وصولته، وجولته، فإن هذا لا يعني دوامه.

---

[1] صحيح البخاري (٣٩٨٠) .